منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (3239) السنة الثانية عشرة - الأربعاء (17) كانون الأول 2014

WWW. almadasupplements.com

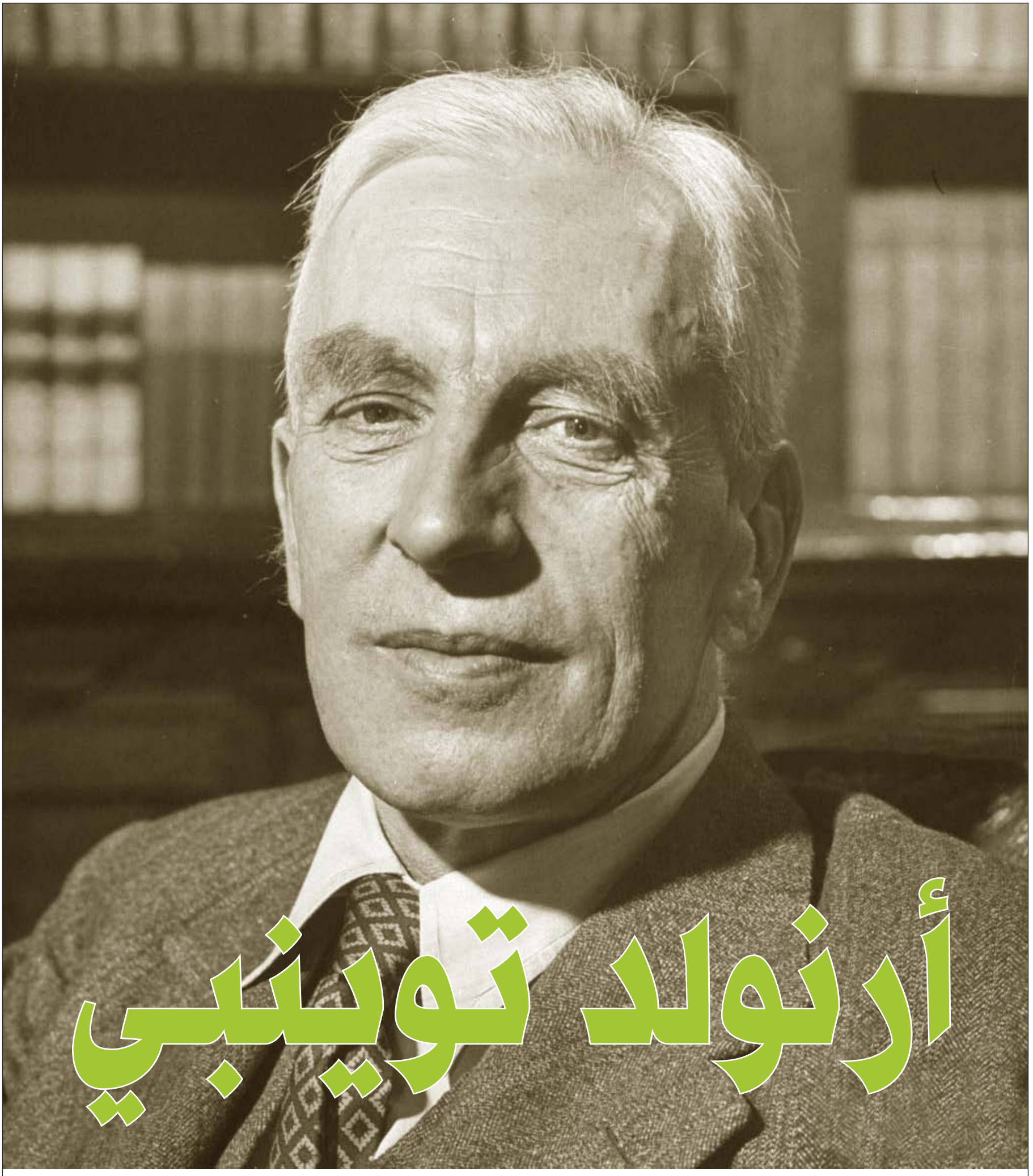

أرنولد توينبي

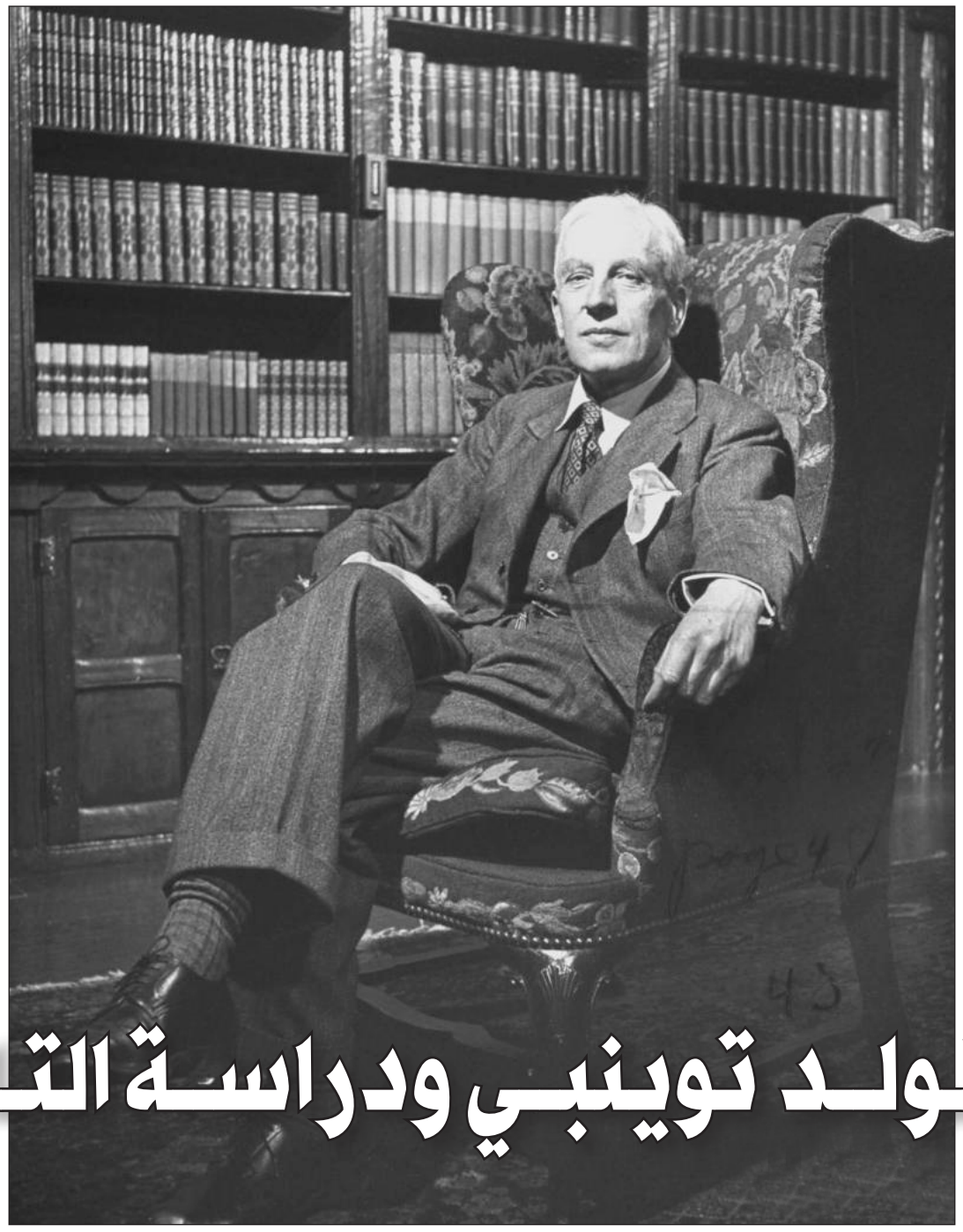

آرنولد توينبي ودراسة التاريخ

د.خالص جلبي

باحث ومؤرخ عراقي

البارحة وقع تحت يدي كتاب (قصة الفلسفة) لويل دورانت، فقرأت عن (نيتشه) ونظريته في العود الأبدي، وهي تلك الفكرة العجيبة، التي جاءته وهو يتأمل شجرة، في حالة نيرفانا، ويرى تساقط الورق من الشجر.

ثم غصت في كتاب (مختصر دراسة التاريخ) لجون آرنولد توينبي، ثم تتبعت كل كتاباته، وأذكر بعضا من أفكاره من أيام ماوتسي دونج، وكيف تكلم عن دور الإسلام للمستقبل في تحريم الخمر، وكيف يتحول الناس إلى عصر الكهوف أيام التلفزيون، وتوديع عصر الكلمة المكتوبة لصالح الصورة والفضائيات، ولم تكن قد بدأت حفلات الجنون والمجون ولياليِ أبي نواس.

ثم ساعدني الأخ عبد اللطيف الخياط مدرس اللغة الإنجليزية في تحصيل كتبه الأصلية بـ ١٢ مجلداً، وهي كل ما كتب عن التاريخ في خمسين عاماً، ثم حصلنا نسخته الإنجليزية المنقحة الأخيرة من لندن مع الصور فكانت بياناً فوق البيان.

وهذا هو طريق بناء المعرفة؛ الصيد والسعي وبمطاردة دؤوبة لا تعرف التعب خلف الكتب، وأذكر جيداً رحلتي من شمال لندن إلى جنوبها، من أجل صيد (مجموعة سيبا .نتر الطبية) وهي شيء مذهل في عالم الطب، ويومها قالت لي السكرتيرة تعذبت، وكان يمكن أن ترسل بالبريد، ولكن كسبت هدية جانبية من كتب تضم تقريبا وبالألوان أمراضا لانهاية لها مع الشرح، قد أعرضها بالتدريج للقارىء، كما نفعل مع السير والشخصيات وكتب التاريخ والموسوعات، في صدد بناء نسق معرفي بين الشباب.

في الحقيقة لم يعد عندنا رجال موسوعيون من هذا الطراز. نعم كان عندنا ولكنهم في الوقت الحاضر ندرة. مثل ابن كثير وابن الأثير وابن خلدون، بل إن نفس توينبي هو من عرفنا على مقدمة ابن خلدون حين وصفها بأنه أعظم عمل من نوعه أنتجه أي عقل في أي زمان في أي مكان.

كما أن توينبي هو الذي وصف المؤرخ المصري (الجبرتي) الذي أثاره في حملة نابليون، المرافعة القضائية في قضية سليمان الحلبي، والدفاع والإدعاء العام، أكثر من مفرقعات الجنود الفرنساوية، ولم يكن مصيره بيد المماليك سوى سلخ جلده والخازوق لو قام بنفس العمل فقتل سليمان الحلبي كليبر نائب نابليون.

وهذه العتمة من الرؤية، هي التي تحجب عن أعيننا التمييز بين ما يحصل في العراق وفلسطين؛ ففي أبريل من عام ٢٠١٠م وفي يوم واحد كانت حصيلة القتلى من تفجيرات العراق أكثر من ستين شخصاً، وفي يوم هلك ألف ممن سقط من جسر بغداد، مع ذلك فعيوننا تذهب خلف جرائم بني صهيون، وهو أمر طبيعي بين عدو وعدو، وليس بين أهل البلد الواحد، الذي ينطبق عليهم قول الرب إنه يلبسهم شيعاً فيذيق بعضهم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون؟ مثل التسونامي وبركان آيسلندا، بفارق أنه ليس من غضب طبيعة لها قوانين، بل بشر يرتكبون الجريمة بكامل الوعي.

نموذج توينبي هائل، قعد على دراسة الظاهرة الإنسانية عبر التاريخ، فامتاز بتحليل لذيذ، تمتعت به أنا من خلال دراسة استمرت ثلاثة أشهر أثناء مكوثي في ألمانيا للتخصص؛ فكنت أدرس الطب بجنب التاريخ. وهو كتاب أنصح به كل واحد باقتنائه وقراءته في ثلاثة أشهر بمتعة وحبور.

ولم يكن الكتاب الوحيد؛ فقد عكفت أيضاً على (سقوط الغرب) لأوسفالد شبنجلر بثلاثة مجلدات وترجمة رديئة اضطررت بعدها من شراء النسخة الأصلية الألمانية وأنا بها طفل أتأتأ؟ وكتاب (معالم تاريخ الإنسانية) أيضا للمؤرخ البريطاني المشهور هـ.ج.ويلز، فقرأته في شهر من الزمن، ونقلني عبر التاريخ منذ خروج البرمائيات حتى اندلاع الحروب العالمية، كذلك تمتعت واستفدت لأبعد الحدود من دروس التاريخ عند ديفيد كينيدي عن (سقوط وصعود الإمبراطوريات) في القرون الخمس الفارطة، كذلك كتاب (قصة الحضارة) للمؤرخ ويل دورانت، الذي أنتج كتابه في جهد بلغ نصف قرن، و ٢٥ زيارة علمية لأرض الحضارات، وقراءة خمسة آلاف كتاب قبل كتابة مجلد واحد من موسوعته، التي وصلت إلى ٤٢ جزءاً بهياً بهيجاً، يجب أن تتملكه أي عائلة مهتمة بالثقافة، وتدريب أولادها على القراءة، وليس حل المشاكل بالسكاكين، كما عالجت أنا حالتين من طعنات سكاكين بين الإخوة داخل المنزل الواحد في شهر واحد، واحدة في الرقبة ضربا باليمين، والثانية في العضد طعناً بالسكين، وكلا الضربتين ضربت الأوعية الدموية، وأخذت صاحبها قريباً من يد عزرائيل وإسرافيل.

أهم ما في كتاب (مختصر دراسة التاريخ) لتوينبي محاولة اكتشاف العلاقات الخفية بين أحداث التاريخ، في صدمات الحضارت كل ألف سنة، وقانون صعود الحضارات وهبوطها، وأثر الحرب في تفسخ الحضارة، ومعنى الآلة العضلية في الرق والصناعة، وعلاقة الحرب والرق كمرضين متلازمين، ومعنى هذا التبشير بنهاية عصر الحرب، طالما تم إنهاء عصر الرق.. في زبدة رائعة من الأفكار جدير بالاطلاع عليها وخليق.

عن جريدة الرياض السعودية

في ذكرى وفـاة المؤرخ البريطانـي أرنولد توينبي..

وقفة تحية واستذكار

للاحتفال بذكرى مرور ٣٥ عاما على وفاة المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي مايبرره، فهو معروف بتأييده للحق العربي في فلسطين، وبتسليطه الضوء على كيفية اغتصابها.. كما أنه يعد من أعظم المؤرخين العالميين في عصرنا الحاضر. وكتابه الموسوم: ASTUDY OF HISTORY"دراسة للتاريخ"من أعظم المصادر التاريخية التي ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين. لذلك يجدر بنا أن نقف عند توينبي ونتابع سيرته الحافلة باقتضاب. فقد ولد سنة ١٨٨٩ ودرس في جامعة أكسفورد ثم عمل فيها بين سنتي ١٩١٢- ١٩١٥. وفي سنة ١٩١٨ عين موظفا في وزارة الخارجية البريطانية. وأسهم كعضو في جلسات مؤتمر الصلح في باريس وفي قسم الشرق الأوسط في الوفد البريطاني. وخلال الحرب العالمية الثانية تسنم منصب مدير قسم الأبحاث والدراسات في"المعهد الملكي للشؤون الدولية"وأستاذا باحثا للتاريخ الدولي في جامعة لندن إلى أن تقاعد سنة ١٩٥٥.

أ.د. إبراهيم خليل العلاف

باحث ومؤرخ

سنة ١٩٧٥ توفي في يورك ببريطانيا عن عمر يناهز الـ ٨٦ عاما. لتوينبي مؤلفات عديدة أبرزها كتابه(دراسة التاريخ) ويقع في ١٢ جزءا درس فيه توينبي الحضارات البشرية وأنماطها منذ عصور التاريخ الأولى وحتى السنوات القليلة التي سبقت وفاته. ولقد اختصر"سمرفيل"هذا الكتاب في جزئين ترجما إلى اللغة العربية من قبل الأستاذ فؤاد محمد شبل بتكليف من الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية.

ولقد تعددت مصادر الفكر(التوينبي) وزادت بشكل لايمكن حصره في مقال مقتضبة. ومع هذا أننا لانملك غير الإشارة إلى بعضها. فتوينبي يعد نفسه مؤرخا سعيد الحظ ذلك أن الأوضاع العالمية التي عاش في ظلالها اتاحت له أن يقف على مادة خصبة للدراسة. كما كان ملما باليونانية واللاتينية وهذا ماجعل الثقافة الكلاسيكية أي تراث الفكر اليوناني- الروماني عماد تفكيره والقاعدة الراسخة التي كانت تدعمه دائما.

ولقد أثار كتاب الفكر الألماني ازوالد شبنكلر(سقوط الغرب) في نفس توينبي كثيرا من القلق على مصير الحضارة الأوربية فعكف على دراسة الحضارات السابقة في محاولة لمعرفة عوامل تدهورها وسقوطها.

ومن خلال تفقد توينبي لنظرية شبنكلر تبلورت أفكار توينبي ويقارن لدكتور محمد هادي الحاج مير في مقال له نشر سنة ١٩٦٢ في المغرب بين المؤرخين فيقول أن شبنكلر يمثل من الناحية الفكرية الشخص الذي جاء يتلو مراسيم تأبين الحضارة الأوربية وهي تدخل قبرها. أما توينبي فهو بمثابة الطبيب الذي يبذل كل جهده لكي ينقذ المريض الذي يرقد على فراش الموت وهو الحضارة الأوربية. وإذا كانت المدرسة الشبنكلرية توصف بأنها(رياضة حتمية) فان مدرسة توينبي يسندها الأيمان مع عدم التشاؤم إزاء المستقبل. والمجتمعات في نظره ليست- كما يقول شبنكلر - كائنات عضوية. وتوينبي على هذا الأساس ليس فيلسوفا بل مؤرخا قيم الحضارات السابقة على الحضارة الأوربية تقييما علميا موضوعيا، ووحدة الدراسة عنده ليست"القومية"بل هي"الحضارة"التي تنتظم أمم عدة. ويحصي توينبي أحدى وعشرين

حضارة ظهرت إلى الوجود لم يبق منها غير خمس حضارات. أما البقية فقد انهارت وتحللت. ومن الوحدات التاريخية لمجتمعات العالم هي: الحضارة المسيحية الغربية(أوربا وأمريكا) الحضارة المسيحية الشرقية الارثودكسية (روسيا ودول البلقان) الحضارة الإسلامية، حضارة الشرق الأقصى، الحضارة الهندية. ويدين توينبي للمؤرخ الروسي(دانيلفسكي) في تبنيه هذا الاتجاه.

وتوينبي كذلك يرد الحضارات إلى الأديان ذلك أن الإمبراطوريات ليست هي مقياس الحضارة بل على العكس فهي تمثل بداية مرحلة انهيار الحضارة. ومن هنا فأن الفكرة المسيطرة على توينبي والموجهة له هي العقيدة الدينية والتاريخ الديني بنظره هو المضمون الأساسي للتاريخ البشري ويتلوه العامل المادي في الأهمية.

لقد كان توينبي من أبرز المؤرخين الذين أباحوا لأنفسهم أن يسألوا الماذا؟ والى أين؟ ولم يكتف بأن يرسم صورة جذابة لماضي الإنسان بل انه رنا ببصره نحو المستقبل. أما لماذا تنهار الحضارات؟ فأن توينبي يقول أن طبيعة الانهيار تكمن في ثلاث مسائل هي:

١-قصور الطاقة الإبداعية في أقلية المجتمع

٢- ابتعاد الأكثرية عن محاكاة الأقلية

٣- انصراف الأكثرية عن بدل الولاء للأقلية القائدة.

ويرى توينبي بان المحيط السهل لا يخلق حضارة،بل العكس هو الصحيح فلقد ازدهرت الحضارات في الظروف القاسية وهذه الظروف تشكل ما يسميه توينبي (التحدي) وتحصل (الاستجابة) في حالة نجاح المجتمع في مواجهة التحدي. وثمة أيقاع أخر يضاف إلى الإيقاع الأول وهو أن الفرد أو المجتمع أو الأمة قد ينسحب في ظروف معينة ويختفي ليعود أكثر قوة وانسجاما بعد أن يمر بعملية تنقية يسميها توينبي عملية (الانسحاب والعودة).

وينتقد توينبي من يقول أن تفسير انهيار الحضارة يقوم على الغزو الأجنبي، ويصر على القول بأن انقسام المجتمع على نفسه دليل انهياره. ويضيف بأن البنية الاجتماعية- بعد تفشي الخلافات الداخلية- تنقسم إلى ثلاثة ولكل منها وظيفة:

الأول: أقلية مسيطرة وهي الطبقة المبدعة

الثاني: البروليتاريا الداخلية وهي الجماهير

الثالث: البروليتاريا الخارجية وهم الغزاة الأجانب.

لقد اشتهر توينبي بموافقة الايجابية من قضية العرب الكبرى وهي قضية فلسطين ولقد تعرض نتيجة لذلك إلى ضغوط الحركة الصهيونية وحلفائها الغربيين وغيرهم.

يقول توينبي عن (إسرائيل) والصهيونية (... لقد اتجهوا في تحد واندفاع إلى تحويل أنفسهم إلى عمال بدويين وأصحاب حرف بدلا من وسطاء إلى زراع بعد أن كانوا صيارفة والى محاربين بدلا من تجار والى إرهابيين بعد أن كانوا مضطهدين...)

وكم وقف توينبي يحاجج الصهاينة في المؤتمرات الدولية وغيرها. فهو يناظر في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٦١- مثلا- سفير (إسرائيل) في كندا ياكوف هيرزوج على أحد مدرجات جامعة ما كجيل في كندا.

قال توينبي:"أن ارض فلسطين ملك لأولئك العرب الذين طردوا من ديارهم". وخاطب الطلبة اليهود في الجامعة قائلا:"أنكم تطالبون بحق اليهود في العودة إلى فلسطين على الرغم من انه ل يكن هناك في فلسطين سنة ١٢٥ ميلادية سكان من اليهود لهم كيان...".

وأضاف:"أن معاملة اليهود للعرب في فلسطين سنة ١٩٤٧ كانت متشابهة من الناحية الأخلاقية لقتل النازيين لليهود خلال الحرب العالمية الثانية". ولدى زيارته إلى غزة في السنة ١٩٦٤ قال:"قرارات الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة المتكررة، والتي تعيد تأكيد حق اللاجئين في العودة إلى وطنهم واستعادة ممتلكاتهم- لما تزل ورقة ميتة بينما في نفس الوقت كان تصميم اللاجئين على الظفر بوطنهم المسلوب لا يزال ثابتا لم يتزعزع كل هذا كان ألان كما رايته من قبل وهذا في حده وضع مأساوي، إذ من المرعب المخيف أن يكون المرء لاجئا واسوا قدرا من ذلك أن يولد لاجئا وأشد سوءا من كل ذلك أن يولد ويقضي حياته ثم يموت صارفا أيامه من الطفولة حتى الشيخوخة في احد مخيمات اللاجئين: مخيم اللاجئين ليس إلا زنزانة.. انه ليس قطعة من عالم الناس العاديين الذين يكون لهم فيه بيوت وأشغال يقومون بها".

وقد حمل توينبي بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية مسؤولية ماحدث ويحدث في فلسطين. وكتب بهذا الشأن إلى مجلة يهودية تدعى (جويش فرو تنير) الحملة الصحفية التي شنتها عليه هذه المجلة ليقول:"باعتباري بريطانيا فاني اشعر شخصيا بهذه المسؤولية"

ويبدي توينبي رأيه في الوحدة العربية فيقول أن الحدود القائمة اليوم أقامتها بريطانيا وفرنسا بصورة مصطنعة لتكون منسجمة ومصالحها الاقتصادية والإستراتيجية والاستعمارية، لا لتلبي حاجات السكان العرب. ويعرب توينبي عن دهشته في سر تمسك العرب بهذة الحدود إلى الآن. وله رأي في حل قضية فلسطين تتلخص بإعادة الفلسطينيين إلى ديارهم وبهذا يعود الحق إلى نصابه.

وأخيرا فإن الالتفاتة إلى هذا المؤرخ المنصف، والدعوة إلى أقامة مهرجان أو مؤتمر لتكريمه أمر مهم ومن الممكن أن تضطلع جامعة الدول العربية أو إحدى الجامعات العربية أو اتحاد المؤرخين العرب أو إحدى أقسام التاريخ بهذه المسؤولية فتكريمه –بحق - يؤكد أولا وقبل كل شيء قيم العرب الأصيلة في الوفاء وعدم نكران الجميل.

مع أساتذتي في دراساتهم للمؤرخ البريطاني أرنولد توينبي

تصدى المؤرخون والباحثون لآراء المستشرق البريطاني أرنولد توينبي (١٨٨٩ – ١٩٧٥م) وما كتبه في الحضارة والتاريخ وذلك للوقوف على منهجيته، وموقفه من الإسلام، وقد تعلمت من أساتذتي الراحلين منهج النقد التاريخي، وهم:
١. الاستاذ الدكتور صالح احمد العلي
٢. الاستاذ الدكتور جواد علي
٣. الاستاذ محمد توفيق حسين.

الدكتور حسن الحكيم
باحث ومؤرخ

وكانت سنوات الدراسة الجامعية في مرحلتي البكالوريوس والماجستير في كلية الآداب بجامبعة بغداد أعطتني خضماً من المعلومات التاريخية، وعلمتني فلسفة التاريخ، وأضاف استاذي المرحوم محمد توفيق حسين، عن اشرافه على إطروحة الدكتوراه (كتاب المنتظم لابن الجوزي، دراسة في منهجه وموارده وأهميته) بعداً معرفياً لعلم التاريخ، فإنه قد التقى بعدد من المستشرقين وأعلام التاريخ في العالم، وكان حواري مع استاذي المرحوم الدكتور جواد علي يدور حول كتابه (المهدي المنتظر) الذي نال به شهادة الدكتوراه من إحدى الجامعات الألمانية، في الوقت الذي رفض فيه ترجمته الى اللغة العربية، خوفاً من إلصاق المؤشرات به، في قضية عقائدية خطيرة، ولكن بعد وفاته، ترجم الكتاب الى اللغة العربية، وكتبت عنه فصلاً في كتابي (الإمام المهدي عليه السلام، تاريخ وعقيدة) وعنوانه (حوار مع الأستاذ الدكتور جواد علي في كتابه المهدي المنتظر) ناقشت فيه المؤشرات التي ما كان يفصح عنها عند توجيه أسئلتي إليه، وبخاصة بعد الإنتهاء من إلقاء محاضراته، أما استاذي المرحوم الدكتور صالح احمد العلي، فإنه كان متواصلاً مع طلابه في كلية الآداب، والمجمع العلمي العراقي، وقد أمدني بمعلومات وفيرة عن الإستشراق والتاريخ والحضارة والنظم، وكان حضوري امام المرحوم الأستاذ طه باقر في المناقشات الجامعية لرسائل الطلبة والمؤتمرات العلمية، إذ لم أتتلمذ عليه في مادة آثارية وفق تخصصه الدقيق، ووقف علماء العراق (صالح العلي، وجود علي، وطه باقر) في دراساتهم لعلم التاريخ والآثار، موقف الباحث المتفحص وكان المستشرق البريطاني ارنولد توينبي موضع دراسة نقدية لدى هؤلاء العلماء وبخاصة كتابه (بحث في التاريخ) الذي يقع في عشرة مجلدات، وأشر اليه الأستاذ طه باقر بقوله: "يعد في مقدمة المؤرخين الباحثين الغربيين وفلاسفة التاريخ/ ومن هنا فأنا أعدّه من أعاظم المفكرين"، ونشرت جريدى الجمهورية بتاريخ ٢٦ / ١٠ / ١٩٧٧ ما دار في تكريم الاستاذ توينبي من دراسات علمية دقيقة، و في مقدمتها الحضارة العربية الاسلامية في نشأتها ونموها وقد وضع ستة وعشرة حضارة عالمية ووزعها على محورين هما:

أولا: الحضارة الأصيلة

ثانياً: الحضارة المنشقة

وكانت حضارة بلادوادي الرافدين وحضارة بلاد وادي النيل في مقدمة الحضارات، فيقول الاستاذ طه باقر: "ولتوينبي نظرية ظريفة بعلل فيه نشوء الحضارات وسير المجتمعات البشرية، وهي النظرية التي يطلق عليها (التحدي والاستجابة) ومع طرافة هذا العامل وكونه من الآراء التي إبتدعها توينبي فإن عامل التحدي والاستجابة ليس جديداً، بل إننا نقرأ عنه حتى فس لوك الفرد فيما يسمونه الفعل ورد الفعل"، ويأتي نقد الأستاذ طه باقر للمؤرخ أرنولد توينبي مشفوعاً بأدلة علمية وإستشهادات تاريخية ولكن نظرية (التحدي والاستجابة) فرضت وجودها في الدراسات التاريخية، وقد كتب استأذنا الدكتور جواد علي: (أفكار وذكريات عن توينبي) أشاد بعلمه وفكره فيقول: "لا أعرف مؤرخاً ظهر حتى الآن وبحث في التاريخ الحضاري له علم بمفردات التاريخ مثل توينبي"، وما زالت اراء الدكتور جواد علي في ذاكرتي بعد مرور اربعين عاماً، ووقوفه الى جانب الشعب الفلسطيني في محنته تجاه الصهاينة، فيقول: "ان توينبي لم يكن من المتحمسين للعرب على باطل، ولا من الكارهين لليهود، وإنما كان رجل صدق يقول الحقيقة وقرّ الواقع، ولا يهمه ما يقال عنه، وقد قال لي ذلك بنفسه مراراً حين سألته عن إتهام الصهاينة له باللاسامية"، وكان إستاذي المرحوم محمد توفيق حسين قد وافق الدكتور جواد علي في موقف توينبي من الصهيونية، وأشار الى موقعه العلمي بقوله: "إن توينبي جم النشاط، غزير العطاء، يسافر ويدرس ويحاضر، ويؤلف الكتب في الموضوعات التاريخية والسياسية، وقد إستهوته الحضارة العربية فتعلم لغتها ودرس تاريخها وتتبع ازدهار العلوم والفنون فيها وسجل إعجابه وتقديره لما قدمته من مثل إنسانية عليا في إحترام كرامة الإنسان، ورعاية المعرفة والتسامح وحسن المعاملة للامم والشعوب"، وعقب استاذي محمد توفيق حسين على رؤية ارنولد توينبي للصهيونية بقوله: "لم يؤسس اليهود دولة كبرى، ولم ينشئوا حضارة مزدهرة، وتاريخهم خال من الأعمال الحضارية الكبيرة التي انجزتها الحضارات المعاصرة لهم او المتقدمة عليهم في الزمن كالحضارات السومرية والأكدية البابلية والآشورية والأخمينية والسورية والهلينية"، وأكدّ استاذي المرحوم صالح احمد العلي في بحثه (توينبي والحضارة العربية) على الحضارة العربية الاسلامية في فكر توينبي بسبب تضلعه في اللغة العربية وصلاته بالاستاذ شفيق غربال والمستشرق هاملتون جب، وكانت إهتماماته بالمؤرخ ابن الطقطقي (إبن طباطبا) صاحب كتاب (الفخري في الآداب السلطانية) والمؤرخ ابن خلدون في كتابه (التاريخ)، بسبب تضلعهما بفلسفة التاريخ وأشار الدكتور العلي الى إهتمام توينبي بالحضارة العربية ضمن الإطار العام للتاريخ العالمي، ومن المؤكد ان الاستاذ ارنولد توينبي درس الإسلام وإنتشاره في الآفاق، وما قدم من نظم وفكر وحضارة وتشريع، مما جعله يلتقي بالحضارات العالمية وفق روح الإنسانية التي يحملها المسلمون، وأشار توينبي الى عصر الخمول الذي سيطر على الواقع الاسلامي بعد هيمنة المغول الاملخانيين على أجزاء من العالم الاسلامي وإسقاط الخلافة العباسية في بغداد.

عن موقع الدكتور
حسن الحكيم الالكتروني

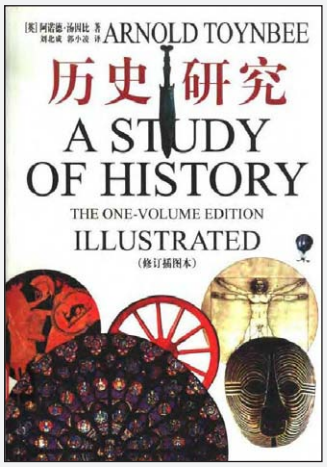

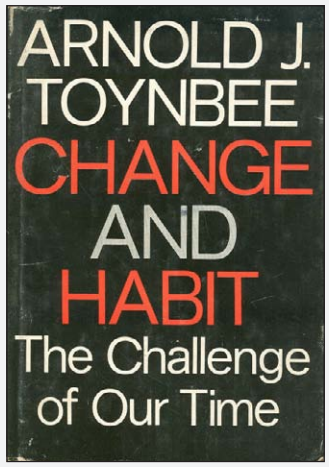

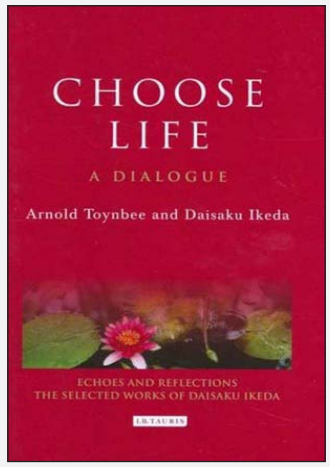

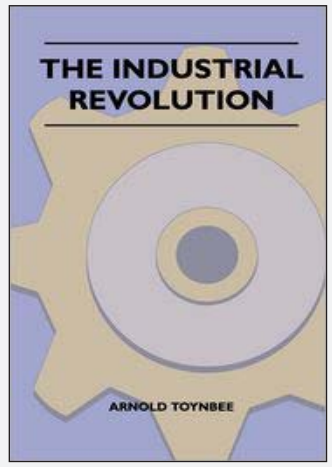

صورة البطل! من كارلايل إلى توينبي وفلسفة النظام الديكتاتوري

بشار الشداد الحياوي

تندرج جميع التطورات الفلسفية للتاريخ جميع نمطين أساسين النمط المثالي: الذي انبثقت منه تحت التصورات المثيولوجية والاسطورية التي تقيم وزناً كبيراً للفرد البطل او العبقرية الفذة لعملية الحراك التاريخي – مهاما كانت صفة ذلك البطل وعقيدته –. والنمط المادي: الذي يلتمس قوانين حركة التاريخ في الواقع الاجتماعي وتنتهي إلى أن الشعوب هي التي تصنع اقدارها محكومة بالعوامل الاقتصادية.

والذي يهمنا في بحثنا هذا، النمط المثالي، والذي تعتمد عليه، مع الأسف، أغلب الدراسات التاريخية المنهجية والاكاديمية المقيدة بفلسفة النظام الحاكم.

بدأ النمط المثالي عام ١٨٤٠م بعد القاء (كارلايل) محاضراته عن الأبطال والبطولة ودورهما في التاريخ.

فالتاريخ في نظر (كارلايل) هو مسيرة الابطال العظماء، وسجل منقبي لأعمالهم الاسطورية التي تشكل مادة ثرية لهواة السير والتراجم. ويعتقد (كارلايل) أن كل الفضل يعزى إلى ابطال من نوع خاص اعدتهم العناية الالهية اعداداً خاصاً كي يجعلوا للبشرية معنى وبدونهم ليس إلا الفوضى.

لقد استغل (كارلايل) إلمامه الواسع بتاريخ البشرية في تقديم نماذج لأبطال الأساطير، وكان أخطر ما أعلنه (كارلايل) أن تقديس البطل تعبير عن غريزة وجبلة في الطبيعة البشرية.

وبعد نحو قرن من انتشار آراء (كارلايل) وبرغم التقدم في مجال المعرفة وتطور العلوم الاجتماعية، ظهر (ارنولد توينبي) المؤرخ البريطاني مقدماً دراسته للتاريخ مؤكداً على مفهوم البطل والبطولة، متجاهلاً ظهور المادية التاريخية كثورة في فلسفة التاريخ.

ولم يختلف (توينبي) عن (كارلايل).. في انحيازه التام لدور البطل في صنع التاريخ، ورفضه اتجاه الفلسفة الاجتماعية في تفسير التاريخ.

ولكن (توينبي) اضاف في فلسفته مع البطل (الصفوة المبدعة) وهي على شاكلة البطل، ليس لها سمات البشر العاديين بل تفوه بالعقل والصبر والمجالدة والقوة.

وعلى الرغم من أن آراء (توينبي) لا تخلو من اعتراف بأهمية البعد الاجتماعي في تفسير التاريخ، لكنه يرى أن افعال الأفراد لها الثقل في عمليات الحراك الاجتماعي، وهؤلاء الافراد هم، البطل والصفوة المبدعة، التي اقرب ما تكون إلى شاكلة البطل، وتقوم بدور مساعد في انجاز مهام البطل التاريخية.

ويبقى للبطل التأثير الفاعل، وهو العامل الحاسم في التحولات التاريخية على يديه تتم الطفرات الحضارية.

ولاثبات نجاح نظريته وفلسفته التاريخية استعار (توينبي) هذه النظرية وطبقها على حياة، عيسى ومحمد، محاولة منه لتأكيد دور البطل والبطولة في صنع التاريخ.

لقد تناسى (توينبي) أن الشعوب والجماعات – لا الابطال – هي صانعة التاريخ، وما جاء به ما هو الا تكريس لعبادة الشخصية وابراز دور القادة الابطال على حساب دور الشعوب.

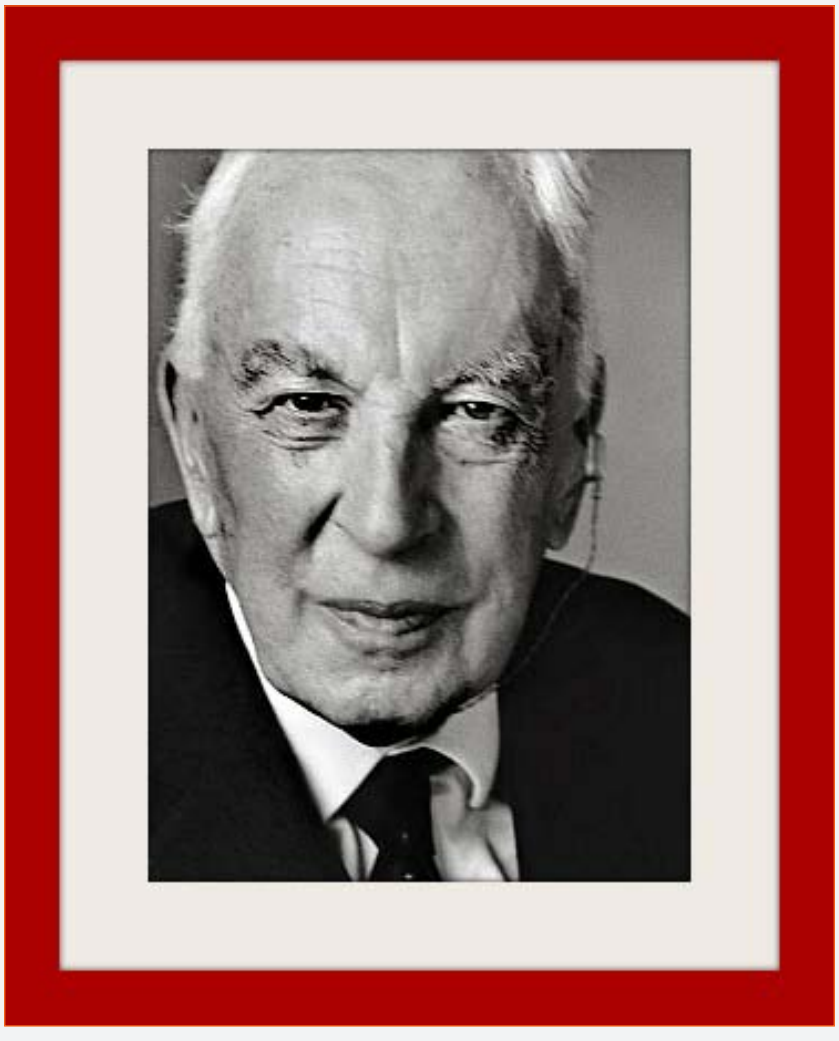

استثمرت نظرية (توينبي) وفلسفته التاريخية ومن قبله نظرية (كارلايل) الانظمة والحكومات الارستقراطية وحديثا الانظمة الديكتاتورية في المجال السياسي والثقافي والتربوي، وذلك لأنها تعزز دور القائد البطل – الحاكم – في احداث المنجزات العظيمة والتحولات الحضارية ومعه (الصفوة المبدعة) أو النخبة من افراد عصابته أو حزبه الحاكم.

لذلك نجد أن النظام العراقي المنهار احتفى بذكرى المؤرخ – ارنولد توينبي – بحجة أن للرجل مواقف مساندة للقضايا العربية المصيرية وداعية للحضارة العربية والوحدة العربية من خلال فلسفته في (التحدي والاستجابة) التي اضافها لنظريته التاريخية.

لقد كانت آراء (توينبي) وفلسفته تنسجم مع فلسفة حزب البعث ونظام صدام الذي اقام حكمه على ركيزة دور البطل والنخبة المبدعة في صنع الأحداث التاريخية.

كان صدام يجد نفسه ذلك البطل الذي بشر به (توينبي) باعتباره البطل الملهم والقائد الفذ الذي اعدته العناية الالهية بصنعه الأحداث التاريخية كي يجعل للحياة معنى.

وبسبب تأثير ثقافة السلطة التي اخترقت الوعي العراقي وعبأته لعبادة الابطال والرموز الاسطورية، حتى اصبح المجتمع العراقي غارقاً في نموذج البطولة.

ولكي يملأ البطل التاريخي بفرديته وشخصيته كل زوايا الحياة ومفرداتها وماضيها وحاضرها جعل من نفسه امتداد طبيعياً للأبطال مثل نبوخذ نصر وصلاح الدين الأيوبي وغيرهما.

حاول النظام الديكتاتوري إلصاق صورة البطل بذهنية المواطن لكي يبقى دائماً متعلقاً بالبطل المنقذ صاحب القدرات الفائقة والعقلية الخلاقة والشجاعة الخارقة، فيشدو له ويتغنى به ويبتهل اليه.

لقد كانت صورة البطل احدى آليات نظام صدام الديكتاتوري الذي قام على الارهاب والدمار والحروب دون أن يفعل فعلاً بطولياً سوى القتل الجماعي.

لقد ضجر الشعب العراقي من نعوت الشخصية البطل وأوصافه، وهو اليوم يبحث عن المشاركة الجمعية في بناء عراق ديمقراطية متحرر يسهم الجميع في اعماره وبنائه.

عن الحوار المتمدن

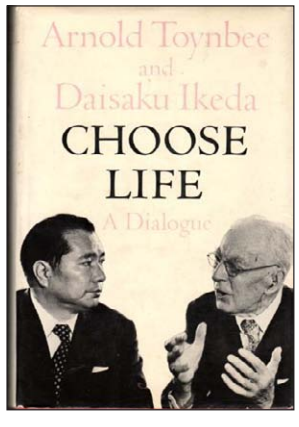

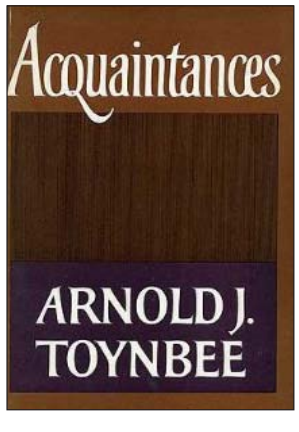

توينبي وفهمه للصراع الانساني

عبد الكناني

ان ثقافة المؤرخ الكبير ارنولد توينبي لم تبن من قراءاته النشيطة والدؤوبة والكثيرة واطلاعه على افرازات الحضارات الانسانية منذ بدء الخليقة وحتى يومنا هذا، وبحثه واستنتاجه واستنباطاته العملية والواقعية من طوفان العطاء الانساني.

بل اسهم عاملاً أخرفي تلك التحصيلات وتلك النتائج وهو زياراته لبلدان عديدة عربية واخرى، ومنها (العراق ومصر والسودان والمغرب وليبيا)، وألقاؤه محاضرات حول قضايا عالمية مهمة، فضلا عن ترجمة كتبه الى لغات كثيرة اسهم ذلك في وصوله الى حلقات مفقودة اكتشفها بين الحضارات الانسانية وأكمل بها المسلمات الواقعية، وتعرفه على عناصر جديدة عززت قناعاته واكدت صحة استنتاجاته.

فضلا عن فتح قناة حوار ونقاش مع المثقفين والمؤرخين وعلماء الأثار والاجتماع ورجال الفلسفة والاديان، سواء في لقاءات مباشرة في حلقات نقاش وحوار وتقارب ام عبر الرسائل والخطابات والحوار عن بعد الذي أضاف لرؤيته الكثير ليبلور تحليلاته ونظرته للاحداث والوقائع على أساس تجربته الخاصة وفهمه المتفرد للتاريخ وللصراع الانساني وتواصل الحضارات الانسانية والتأثير فيما بينها ليصوغ نظريته الشهيرة (التحدي والاستجابة) التي وجد فيها المؤرخون ورجال الاختصاصات الاخرى فهما عميقا للصراع الانساني والتصادم الحضاري، وخلاصة ناضجة لتلك المخاضات العسيرة والشائكة وأطلاعاً ثراً على الكثير من الاحداث التاريخية والمواقف التي شكلت مفصلاً مهماً وحيوياً في حركة التاريخ الانساني عموماً، والتاريخ العربي الاسلامي على وجه الخصوص حيث أكد ذلك أشاراته وملاحظاته وآراؤه في بعض الشخصيات الأسلامية الكبيرة، وما قاله عن الامام الحسن بن علي بن ابي طالب ما يعزز ذلك ويعكس ذلك الثراء المعرفي عنده فقد ذكر لي المثقف الكبير المتعدد الاختصاصات والاهتمامات الاستاذ سالم الآلوسي بأنه في ربيع عام (١٩٥٦) اخبرونا بأن المؤرخ الكبير (أرنولد توينبي) الذي كان يزور العراق تلك الايام سيأتي لزيارة الكوفة والنجف الاشرف.. فتشكل وفد مؤلف من رئيس هيئة التنقيب في مدينة الكوفة، ومدير معارف النجف والمرحوم نعمان أمين وأنا كممثل لوزارة المعارف، وعند جسر الكوفة استقبلنا المؤرخ العظيم (توينبي) الذي كان يرافقه الأثاري الكبير طه باقر، والاستاذ عبد الجبار الجلبي.

واستقبلناهم بما يستحق من الاحترام والتقدير، وتجول توينبي في مدينة الكوفة ثم زار عدداً من المراجع، ودار حديث عن المرجعية وبيت الأمام علي عليه السلام والأماكن التاريخية، وفي هذا السياق تحدث (توينبي) متناولاً الدبلوماسية العربية حيث قال: لو نظرنا الى تاريخ الدبلوماسية العربية لرأينا اتجاهين: الأول الصلب ومثله الأمام علي بن ابي طالب عليه السلام لكونه قائداً عسكريا..

والثاني: اتجاه أبنه الأمام الحسن عليه السلام الذي مثل التساهل والدبلوماسية، ويجب أن يؤخذ ذلك في التاريخ والأبحاث الدبلوماسية العربية لقد كتب عنه الدكتور منح خوري بحثاً بعنوان (عن التاريخ الحضاري عند توينبي) عام ١٩٦٠.

وقام الأستاذ طه باقر بترجمة كتابه الضخم (دراسة في التاريخ) بستة أجزاء مقدماً اول ترجمة عربية لعطاء هذا العملاق الى الجمهور العربي، حيث قدم هذا الكتاب كمؤرخ حضاري من طراز جديد، ومنحه المكانة الاثيرة بين عمالقة الفكر والتاريخ في القرن العشرين...نعم هذا هو توينبي المؤرخ الانكليزي الكبير الذي عده الدكتور محمد هادي الحاج مير في مقال له نشر سنة (١٩٦٢) في المغرب، بمثابة الطبيب الذي يبذل كل جهده لكي ينقذ المريض الذي يرقد على فراش الموت وهو الحضارة الأوربية، بعكس المفكر الألماني أرنولد شبنكلر الذي يمثل من الناحية الفكرية الشخص الذي جاء يتلو مراسيم تأبين الحضارة الأوربية وهي تدخل قبرها من خلال كتابه (سقوط الغرب) الذي أثار في نفس توينبي الكثير من القلق على مصير الحضارة الأوربية، فعكف على دراسة الحضارات السابقة لمعرفة عوامل تدهورها وسقوطها، وقام بنقد ما جاء في نظرية شبنكلر.

توينبي الذي وأن أختلف معه بعض المؤرخين وغيرهم في بعض ارائه وأفكاره ولكنهم لا يملكون له ولعطائه إلا التقدير والاحترام ويسجلون لهذا المفكر العالمي الكبير أنه اعطى حيزاً كبيراً من اهتماماته الى القضايا العربية، وكرس فترة من حياته وبعض ابحاثه وكتاباته الى القضايا المعاصرة ومن اهمها الصراع العربي الصهيوني، وكذلك للفكر العربي في مشكلاته وأشكالياته.

ولعل الكثير يعرف بحملته الفكرية على الصهيونية، وحملاته الاخرى ومنها على السياسة البريطانية في فلسطين في عهود الانتداب الجائرة، والتي جعلته يتعرض الى هجمات مضادة من قبل الصهيونية بسبب قناعاته الثابتة ويقينيته بعدالتها وجرأته في الاشارة الى الحقائق الدامغة عبر آرائه ومواقفه التي اعلنها وقالها مؤكداً بأنه مفكر شجاع وصلب في التزام الحقيقة، وذو موقف جسور وراسخ...

وكان واضحاً عندما القى مسؤولية شتات الشعب الفلسطيني على الأطراف كافة الذين أسهموا فيها والتقت مصالحهم عندها، عادها جريمة كبرى بحق هذا الشعب المسكين، وهم: الصهيونية العالمية وامريكا والمانيا وبريطانيا والغرب بصورة شاملة، حيث قدمت الولايات المتحدة الامريكية الدعم اللوجستي للصهيونية، فضلا عن الأسناد العسكري والسياسي والاقتصادي.

في حين ان المانيا اسهمت في صنع مأساة فلسطين عبر اضطهادها لليهود، وتلك المحرقة الشهيرة.

وبريطانيا التي يقع عليها الوزر الاكبر لأنها هي التي اعطت وعد بلفور (سيء الصيت) والذي كان العامل الأساس في تأسيس دويلة (اسرائيل) عام (١٩٤٨) في فلسطين..

وأوروبا ايضا كانت شريكاً في هذه المأساة التي مازالت عصية على الحل على الرغم من الاوضاع التي وصلت اليها اليوم، حيث شكل اليهود الجزء الاعظم من العالم الغربي الذي هيمن وأمتد نفوذه وسطوته على بقاع كثيرة من المعمورة، بسيطرات استعمارية وأحتواءات من خلال احلاف وروابط ومشتركات متعددة، او انظمة مصنوعة وتابعة..

والتي حاولت أن تكفر عن ذنوبها وتغسل خطاياها بحق الشعب الفلسطيني عبر مجموعة مبادرات قام بها او قدمها عدد من ساستها لبلورة صيغ حلول، ومن ابرز تلك النماذج التي فعلت شيئاً في هذا الاتجاه المستشار النمساوي برونوكراسكي رئيس الاشتراكية الدولية، الذي حاول ان يجمع الاسرائيليين بالفلسطينيين في مناسبات مختلفة ونجح في ذلك بعض الشيء والمبادرات الأوربية الاخرى التي حاولت ان تجد خارطة طريق بين الفلسطينيين والأسرائيليين لايجاد حلول تعيد الماء الى وجه اوربا الكالح اسهمت فيها صرخات واصوات نبيلة وجريئة من العالم.

حياته ومؤلفاته

ولد ارنولد توينبي في لندن سنة (١٨٨٩) لاسرة معروفة بالمكانة الثقافية حيث انجبت العديد من الاعلام في مجالات العلم والفكر..

وأتاح له عمله في وزارة الخارجية البريطانية في حقبة الحرب العالمية الاولى ان يحضر مؤتمري الصلح الاول والثاني اللذين انعقدا في العاصمة الفرنسية باريس عامي (١٩١٩- ١٩٤٦).

وشغل وظائف مهمة من بينها مدير المعهد الملكي للشؤون الخارجية واستمر فيه حتى العام (١٩٥٥).

عين استاذاً للغة اليونانية والتاريخ البيزنطي بجامعة لندن عام (١٩١٩).

اشتهر توينبي كمؤرخ وفيلسوف من كتاباته المهمة وكتبه الضخمة والتي من ابرزها (الفكر التاريخي عند اليونان ١٩٢٤ والعالم بعد مؤتمر الصلح ١٩٢٥ - والمدنية في الميزان ١٩٢٤- والحرب والمدنية ١٩٥١ غير ان من اهم مؤلفاته كان كتابه المهم (دراسة في التاريخ) الذي صدر في اثني عشر جزءا، وقد أثار الانتباه له حينها جعلته يتبوأ مكانته المتميزة بين رهط العمالقة الكبار..

تزوج من أبنة احد العلماء الانكليز وهو (جلبرت ميلي) المعروف في الدراسات الكلاسيكية.

القى احدى محاضراته الموسومة (استعراض لتاريخ العالم في نصف القرن الأخير) في القاهرة عام (١٩٦٤).

وتوقفت حياة هذا العالم الكبير والمفكر المتميز والمثير عن الحركة في (٢٢) تشرين الأول (١٩٧٥)...

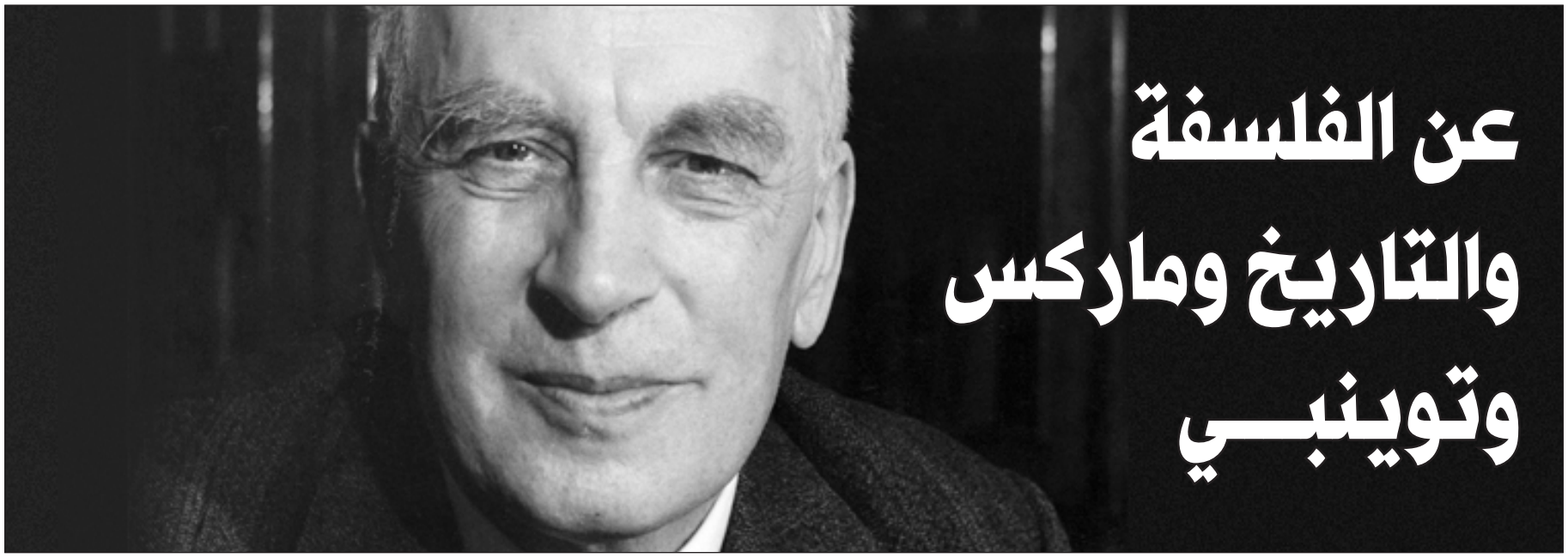

عن الفلسفة والتاريخ وماركس وتوينبي

في عصر سيطرة قاموس الرأسمالية على وعينا، نقف اليوم على تخوم المعرفة المنتجة، لكننا لا ندركها. تزول الحدود المعرفية الفاصلة بين السحر والواقع، فيصبح العلم، من خلال منطق التسطيح السائد؛ تكهنات غيبية لا شأن لها بالواقع المادي. وننظر إلى الأمور بعين التجريد فيستحيل التاريخ حشداً رتيباً من الروايات المبعترة، أو سلسلة من الأحداث العشوائية، التي لا يربط بينها سوى التعاقب الزمني.

يزن حداد

كيف نقرأ التاريخ؟ ربما كان هذا السؤال تحديداً هو الأكثر أهمية من حيث المضمون المعرفي، ما يستتبع بالضرورة أن نطرح جملة من الأسئلة الأخرى بغية تحديد الإجابة. فمثلاً، هل للتاريخ علم؟ وهل يمكن بناء قراءة علمية للتاريخ؟ لكن قبل كل ذلك، ما هي ماهية التاريخ في البداية؟ وما هي أدواته العلمية؟ فلسفة التاريخ أم علم التاريخ؟

على مدى عدّة قرون مضت، بنيت تصورات عديدة للتاريخ البشري وحيكت حوله النظريات؛ تأرجحت تارة بين وهم الأساطير وما وراء الواقع، وبين الفهم الميكانيكي لحركة التاريخ تارة أخرى. ناهيك عن التصور القروسطي الذي ساد بين الأوساط الاجتماعية الواقعة تحت نير الأفيون الديني والجهل، والذي يضفي الغموض والسحر على الماضي ليؤبّد الحاضر من خلال استمرار الماضي فيه، أي أن التاريخ لحظة زمنية مجمدة من الواقع، لا شأن لنا سوى تأملها، أو يرى فيه حركة تكرار متواصل لجوهر ثابت (أي حركة هيغلية، أو "تشامل" كما يسميها، ومن المعروف أن النزعة الهيغلية–الفويرباخية قد تركت أثراً في الكتابات المبكرة لماركس الشاب بالمناسبة).

إذا أردنا أن نستبق التحليل بإضاءة عامة ننطلق منها، يمكننا القول أن التاريخ هو سيرورة تطور المجتمعات البشرية وحركتها وفق قوانين موضوعية معينة، وكما يشير ماركس وإنغلز في البيان الشيوعي، فإن "تاريخ أي مجتمع حتى الآن ليس سوى تاريخ صراعات طبقية" مما يعني أن الصراع الطبقي هو قاطرة التاريخ أو التفسير المنطقي لحوادثه. ولكن يبقى السؤال ذاته مبهماً للأغلبية وبالتالي راهناً لنا: ما هو التاريخ؟

رزحت آراء وتفسيرات الكثيرين لردح طويل من الزمن تحت راية المنظور الغيبي والميتافيزيقي للتاريخ (الفلسفة المثالية)، في حين حاولت الفلسفة المادية شقّ طريقها ضمن هذه المعركة. حيث جاءت نتيجة تساؤلات مؤرقة تعتمل داخل وجدان البشرية باتصال منذ فجرها. لسنا بصدد استعراض مفصّل لأهم التيارات الفلسفية التي حاولت تفسير مفهوم التاريخ في تلك الحقبة، ولكن ربما يعنينا هنا الإشارة إلى الطابع العام الذي كان يغلب على هذه التيارات الفكرية وحسب.

لقد سُبغت معظم التفسيرات التاريخية –حتى القرن الثامن عشر على الأقل– بوهم "المقدّس" غير القابل للتمحيص أو التدقيق، وهو ما عُرف سابقاً باسم "المفهوم اللاهوتي للتاريخ" ضمن الإطار الفلسفي، حيث يرتبط ارتباطاً مباشراً بالاجتهادات الأولى التي قدّمها الفكر البشري في مجرى استكشاف العالم الذي يحيط به. وما يحدث اليوم من محاولات رصد التاريخ (أو تسطيح التاريخ إن صح التعبير) هو امتداد للوهم "المقدّس"، ولكن بثوب مختلف، بمعنى أن واقع الأيديولوجيا المهيمن يفرض منظوراً "ما–قبل علمي" لاستقراء التاريخ، مما أنتج تيه سياسي واضح وتخبط في المواقف. ويتجلى ذلك المنظور على صعيدين، الأول: المؤسسة التربوية–الإعلامية المنوطة بوظيفة ضبط الوعي الجمعي، والثاني: القاعدة التكنولوجية، التي تم إحلالها على المستوى الاجتماعي لتتوسط علاقات البشر فيما بينهم، وبالتالي سيطرة الوعي التقني على المنهج التاريخي. ثمة أمر هنا يمكن ملاحظته بوضوح، وهو أن الطريقة التي يُطرح بها التاريخ داخل "مناهج" التعليم في المدارس والجامعات بصفة عامّة، تعطيك الانطباع أنك بحاجة لمعرفة أي عائلة حكمت هذا العرش أو ذاك، وفي أي عام فقط، وكأن التاريخ ساحة معركة بين القوى الحاكمة، أو أنه ثابت لا يتغيّر فيه إلا "شخوص" ما، وما عليك أنت سوى أن تعرف بعض الأرقام والأسماء لإدراك التاريخ بتعقّد حركته وقوانينه.

قد يبدو التوصيف السابق منقوصاً في تعليل خواء الفهم التاريخي اليوم، لكنه يعطينا مفتاحاً لفهم وتفكيك هذا المنطق الصوري بوصفه جزءاً من الوعي الجمعي، أي المنظور ما–قبل العلمي. وفي سياق متصل، يقفز إلى المشهد سؤال إبستمولوجي بصدد علمية المنظور: على أي أرضية نظرية يمكن تحديد ما هو علمي في قراءة التاريخ؟

يميّز الفيلسوف الروسي جورجي بليخانوف بين فلسفة التاريخ وعلم التاريخ من حيث المفهوم، ويرى أن التاريخ باعتباره علماً هو "التاريخ الذي لا يكتفي بمعرفة كيف حدثت الأمور، بل يريد معرفة لماذا حدثت الأمور على نحو معين وليس على نحو آخر". وعلى هذه القاعدة النظرية يتبلور منهج الفهم المادي للتاريخ، أو الفهم العلمي لقوانين الاجتماع البشري في سياقها التاريخي.

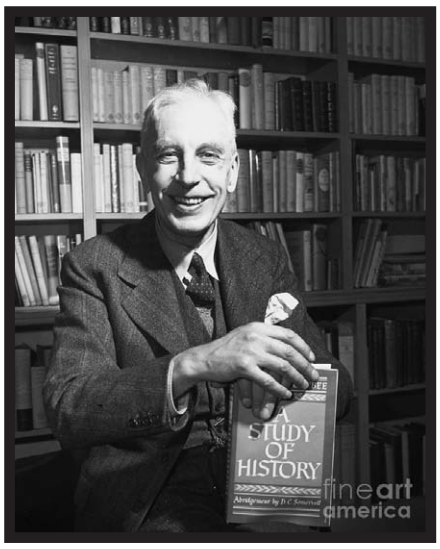

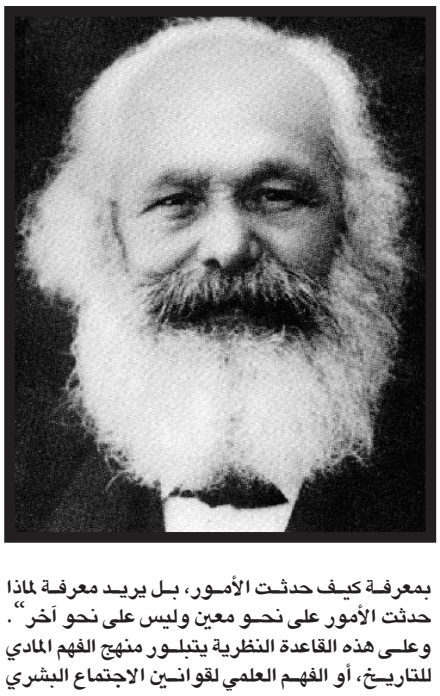

في معرض الحديث عن علمية التصور المادي للتاريخ، يحضرني عنوان كتاب مهدي عامل (في علمية الفكر الخلدوني)، والذي أكد على أن مادية الفكر هي علميته. ويتقاطع عامل هنا مع بليخانوف في رؤيته للتاريخ من حيث أن له مفهومين متناقضين، فهناك "مفهوم يقف عند ما هو من التاريخ ظاهره، ومفهوم يخترق الظاهر إلى الباطن في بحث عن حقيقة التاريخ، ليجعل منها موضوعاً لعِلم". ويستمر عامل في ذلك التحليل باستعراض الجوانب العلمية (المادية) في الفكر الخلدوني، داخل الحقل الاجتماعي والحقل التاريخي، لكنّه يؤكد أولاً على أن الفصل بين الحقلين جاء من باب ضرورة منطق العرض المنهجي، ومن ثم فإن مفهومي التاريخ والاجتماع البشري هما جزئين في عضوية واحدة، لا يمكن دراسة أحد عناصرها بمعزل عن الآخر.

ليس هناك شك أيضاً أن مادية خلدون تختلف عن مادية أبيقور أو ديموقريطس مثلاً، أو مادية ماركس التي هي محور النقاش، حيث أن مادية ماركس أسست على فلاسفة عصره وتجاوزتهم في آن معاً، فقد بدأ ماركس بتوجيه سهام النقد لمادية فويرباخ الميكانيكية بعد أن تمكن من تخطّيها صوب مادية أكثر مرونة وفاعلية، المادية الجدلية. وعلى الرغم من أن مادية ماركس هي الأكثر اتساقاً وتماسكاً بالقياس إلى المدارس الفلسفية الأخرى، لكن ذلك التحديد العام لا ينفي بالمقابل علمية الفكر الخلدوني، ولا ينزع عنها الطابع الملازم للفكر العلمي في قراءة ظواهر التاريخ.

إذاً، نستطيع أن نلخص ما سبق في نقطتين أساسيتين، أولاً: إن حركة المجتمعات البشرية في المجال الطبقي المشحون بالتناحر هي المعادلة التي تغزل خيوط التاريخ وتصنعه، مما يعني أن علاقات الإنتاج السائدة تعبّر عن مرحلة اجتماعية تاريخية محددة. ثانياً: إن النظر إلى التاريخ وفق المعادلة السابقة يعكس مادية الفكر وعلميته، أي أن علم التاريخ يرتسم بدلالة البناء المادي للمنظور التاريخي، الذي يعيد ظواهره إلى علاقات مادية من الداخل، وليس عوامل روحانية أو غيبية تُفرض عليه من الخارج، ومن جهة أخرى فإن المادية التاريخية تترجم التحام العلم بالفلسفة في جسم واحد. ولئن كانت الدولة، بالإضافة إلى ما سبق، تعد جهازاً طبقياً له أشكال متعددة (دولة سياسية، دولة طائفية، دولة استبدادية،..إلخ)، فإن تمرحل أطوار الدولة في التاريخ يعكس حركة المجتمعات البشرية في ضوء شبكة العلاقات التي تربطها.

عن جريدة النهار اللبنانية

في عام ١٩٤٩ طلبت وزارة المعارف التربية اليوم من الاستاذ السيد طه باقر امين المتحف العراقي أن يتولى تعريب موجز كتاب دراسة في تاريخ للمؤرخ البريطاني ذي الشهرة العالمية العلامة (ارنولد توينبي) صاحب المواقف الشريفة المناصرة للقضايا العربية. فيلسوف عظيم وكان الكتاب الاصل يتألف من عشرة اجزاء ضخمة اختصرها بجزءين الاستاذ دي. سي سمرفيل وهو غير سمرفيل الذي عمل مستشارا في وزارة المعارف العراقية في الثلاثينات وقد عكف طه باقر على تعريب الجزءين الموجزين لسمرفيل على مدى أربع سنوات معززا الترجمة بالمواشي والتعليقات المفيدة ودفعه للطبع استجابة لطلب وزارة المعارف وفي صيف عام ١٩٥٤ طلب الاستاذ باقر مني معاونته في الاشراف على طبع الكتاب واعداد الفهارس له فاضطلعت بالمهمة وتم الفراغ من طبعه في بداية عام ١٩٥٥ حيث تم طبع الجزء الاول في مطبعة التفيض الاهلية والجزء الثاني في مطبعة المعارف

سالم الآلوسي

عندما زار العلامة توينبي مدينة النجف

واقولها للحقيقة انني استفدت فائدة عظيمة من خلال مراجعتي تجارب الطبع واعددا الفهارس واعجبت اعجابا كبيرا بالمؤلف العلامة توينبي الذي يعد من اعاظم المؤرخين في العصر الحديث ولم يكن مؤرخا حسب بل فيلسوف عظيم قامت دراساته على أساس الناحيتين المادية والروحية التي تناول فيها بالتحليل الفلسفي العميق والمقارنة الدقيقة الشاملة بدايات الحضارات البشرية الكبرى وتطورها وانهيارها. قوانين جديدة للحضارات وقد انفرد العلامة توينبي دون سائر المؤرخين المعاصرين باستنتاج قوانين وقواعد جديدة لمسيرة تلك الحضارات ونموها وانحلالها نذكر منها قانون التحدي والاستجابة في نشوء الحضارات وقانون الاعتزال والظهور في الظاهرة الاجتماعية التي يسميها بالابداع مما يقوم به الافراد المبدعون او الاقليات المبدعة. ودستور الهزيمة ولم الشعث في الحالة التي يطلق عليها اسم ايقاع الانحلال الى غير ذلك من غرائب الاستنباطات وتتجلى قدرته الفذة في استخدام حوادث التاريخ البشري منذ أقدم عهوده وفي مختلف ادواره وموضوعاته باساطيره وادابه واديانه وغير ذلك من المعلومات التاريخية والعلمية والدراسات الفلسفية والمعارف الادبية. دراسة في التأريخ وعلى هذا الاساس يعد كتابه دراسة في التاريخ موسوعة عظيمة من انفس ما أنتجه الفكر الغربي المعاصر في فلسفة التاريخ وتاريخ الحضارات. وليس غريبا أن يحتل هذا الكتاب هذه الاهمية البالغة التي دفعت المسؤولين بوزارة المعارف الى تعريبه ليطلع عليه المؤرخين والمثقفون واهل العلم والمعرفة فد امضى العلامة توينبي اربعين عاما (١٩٢١-١٩٦١ لانجاز موسوعته الضخمة المؤلفة من عشرة اجزاء وبعد صدورها اضاف اليها جزئين اخرين خصصهما للرد على خصومه ونقاده من المؤرخين والكتاب الغربيين ممن جندتهم الدوائر الصهيونية لنقده والتشهير به والتحلل عليه بسبب انتقادات توينبي للحضارة الغربية عامة والحركة الصهيونية واليهودية كظاهرة شاذة متحجرة خاصة ولمواقفه النزيهة الجريئة هذه ولتعاطفه مع قضية العربية ومناصرته للقضية الفلسطينية وهي قضية العرب المركزية اقيمت لذكراه مهرجانات وندوات في عدد من الاقطار العربية منها الاحتفال التكريمي ببغداد في خريف عام ١٩٧٧. ٣ ملايين كلمة تتألف المجلدات العشرة من كتابه من ٦٢٩٠ صفحة وعدد الكلمات يقدر بثلاثة ملايين ومئة وخمسين الف كلمة تضاف الى ذلك مجموعة من فهارس الكتاب تشغل ٣٢٢ صفحة واكثر من عشرين الف تعريف. رب سائل يسال وماذا عن نشأة هذا الؤرخ المنصف وسيرته نقول

ولد العلامة توينبي في عام ١٨٨٩ وتوفي في اواسط السبعينات شغل وظائف عدة ابرزها استاذ التاريخ الدولي بجامعة لندن ورئيس الدراسات في المعهد الملكي الانكليزي للشؤون الدولية وهو مؤسسة غير رسمية اسست عام ١٩٢٠ لتشجيع الدارسات العلمية والقضايا المتصلة بالشؤون الدولية ولشهرته العالمية واهمية دراساته ومؤلفاته كانت اجامعات والمجامع العلمية والمؤسسات التاريخية والمنتديات الثقافية تتسابق في توجيه الدعوات اليع لالقاء المحاضرات واجراء المناظرات وقد تسنى له زيارة اغلب لاقطار العربية كان خلالها موضع التقدير والاحترام وكان لايكتم اعجابه

بالحضارة العربية الاسلامية وبعدها من الحضارات الاصيلة المؤثرة في الحضارات والمجتمعات البشرية وهو معجب أشد الاعجاب بالمؤرخ العربي ابن خلدون. عندما زار النجف هذه أول معرفتنا بالمؤرخ العلامة توينبي اما اتصالنا به شخصيا فقد حصل في اواخر شهر آذار مارس من عام ١٩٥٧ كنت اتولى خلالها مهمة رئيس هيئة التنقيب الاثاري في الكوفة التي كانت تقوم به دائرة الاثار العامة العراقية في موقع دار الامارة الواقع خلف مسجد الكوفة التاريخي، حينما حضر الى مقر الهيئة الاستاذ مهدي هاشم قائممقام النجف الاشرف وبصحبته الاستاذ نعمان امين رئيس بلدية الكوفة واخبرا الهيئة بان الدكتور ناجي الاصيل مدير الاثار العام اتصل بالقائممقام هاتفيا واعلمه بان المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي سيزور الكوفة والنجف غدا. ورجانا أن نتهيأ لاستقبال الضيف فتشكلت هيئة استقبال من الاساتذة السادة مهدي هاشم، الحاج محمد سعيد شمسه رئيس بلدية النجف، نعمان أمين، عادل ناجي الدكتور في ما بعد عضو هيئة التنقيب في الكوفة وكاتب المقال. وفي الصباح اليوم التالي استقبلنا العلامة توينبي عند جسر الكوفة وكان يرافقه كل من الدكتور عبد الجبار الجلبي العضو الاجرائي في مجلس الاعمار العراقي والاستاذ طه باقر معاون مدير الاثار العام وبعد استراحة قصيرة في مقر هيئة التنقيب قام بزيارة المعالم الاثارية والمشاهد التاريخية في دار الامارة وبيت الامام علي عليه السلام ومرقد ميثم التمار وموقع كري سعدة. توجهنا بعدها الى النجف الاشرف حيث امضى قرابة ثلاث ساعات زار خلالها المدارس الدينية وعددا من المكتبات واعجب بنفائس المخطوطات فيها، كما التقى عدد من العلماء. وفي العدد القادم سنتحدث عما دار في هذه الزيارات وماجرى من مناظرات وزتعليقات وعن اعجابه بشخصية الامام علي عليه السلام ونظراته الى المعالم الاثارة الشاخصة وغير ذلك من المحاورات.

أرنولد توينبي والتفسير المادي للتاريخ

جواد التباعي

تعد المادية التاريخية من أهم النظريات في فلسفة التاريخ، إضافة إلى أن شهرة توينبي اعتمدت بشكل أساسي على كتابه "دراسة التاريخ". فالمفهوم الذي اعتمده توينبي هو المدنية أو المجتمع، وهي الوحدة الأساسية للدراسة التاريخية، وهذه تدرس مجموعة من العينات من البشر والتي يطلق عليها، اسم "المجتمع" إذ أن الذي يجمع بين عناصر المجتمع هو العامل الديني كما قال أيضا بأن تاريخ البشرية يتغير باستمرار، بل يسير في خط متعرج غير مستقيم ويتكون من مجموعة من المدنيات حيث كل منها تمر بمرحلة الميل، ثم النمو فالإنهيار، كما أشار توينبي إلى التناقض الموجود بينه وبين المادية التاريخية، هذه الأخيرة التي ترفض فكرة التكرار الدوري للتأريخ للمدنيات، وترفض كذلك الفكرة التي تقول بأن التقدم يكون في خط مستقيم إذن فإن العملية التاريخية واتجاهاتها تكمن في التقدم التكنولوجي، الذي يختلف من مجتمع إلى أخر طبقا للنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية هذه الأخيرة هي المؤثرات الحقيقية على إبداع الإنسان، لذلك فالحضارات شهدت تطورا من حالة السكون إلى حالة الحركة وهي عملية انتقال من السلب إلى الإيجاب.

يرجع البعض هذه العوامل، إلى الجنس والبعض الآخر أرجعها إلى البيئة الجغرافية. توينبي يرفض هذا التفسير حيث قال بأن تحول المجتمعات البدائية إلى الحضارة يكون عندما تواجه المجتمعات بعض المشاكل التي يطلق عليها لفظ (التحدي) لذلك فإن المدنيات لا تظهر إلا بعدما تشكل الظروف الطبيعية تحديا ينبغي قبوله.

كما توينبي حاول البحث في مراحل التطور التي تمر بها الحضارات، والتي تعرف النشأة ثم النمو وأخيرا تدخل مرحل الانهيار، إضافة على أن هناك ثلاث عوامل رئيسية تساهم في انهيار الحضارات وهي كالتالي:

-انعدام الإبداع وإخفاق الأقلية المسيطرة في ذلك، هذا الشيء يؤدي إلى عدم التجانس بين أغلبية الشعب والفئة الحاكمة، مما ينتج عنه انعدام، ورأى أن معظم المجتمعات عرفت الانهيار سوى المجتمع الغربي، إضافة إلى هذا فتوينبي يفسر انهيار الحضارات وذلك بتحليله للارتقاء، الذي ينتج عن الشخصيات المستنيرة ورأى أن معظم المجتمعات عرفت الانهيار سوى المجتمع الغربي، إضافة إلى هذا فتوينبي يفسر انهيار الحضارات وذلك بتحليله للارتقاء، الذي ينتج عن الشخصيات المستنيرة وكذلك عند عجز العقلية على قيادة المجتمع، أنذاك يحدث الانهيار، وأن الانهيار يحصل عندما تتفكك رابطة المدينة. إذن فالسؤال الذي يطرح هو: ما هو مؤشر هذا التحلل؟ أرنولد يرى أن السبب الرئيسي لهذا الانحلال يتمثل في حدوث الانهيار الذي يبدأ قبل مرحلة التحلل وأساس ذلك يتجلى في فقدان تقرير المصير، الذي ينتج عنه سيادة الخلافات الداخلية وهذا يؤدي إلى انعزال المجتمعات عن بعضها البعض.

يرى توينبي أن العوامل الأساسية التي تؤدي إلى التحلل هي:

- وجود أقلية مسيطرة.
- البروليتاريا الداخلية.
- البروليتاريا الخارجية.

ويعرف البروليتاريا الداخلية، بانها تلك الجماعة التي تكون داخل مجتمع وتشعر بانتماءها لهذا المجتمع بالجسد فقط وهذا يجعلهم يشعرون بالحرمان، إضافة إلى أن هناك علامات تحدد فترة التحلل والتي ظهرت في المجتمع الغربي المعاصر، وهي سيادة الاضطرابات والفوضى إلى جانب الخلافات الداخلية والخارجية، كما يقول بأن العلاقات بين الغرب وبقية أنحاء العالم هي في حالة حرب دائمة ومستمرة، إذن نرى أن هناك رأي متناقض في شخصية توينبي، فإذا كانت المدينات العالمية المعروفة تمر بدور التحلل والتدهور فإن هذا الأمر سينطبق بدوره على الحضارة الغربية،

كما أن المؤرخ تريفورروبو يعتقدأن توينبي تأثر بالكتاب المقدس وبكتابه دراسة التاريخ، من هنا يتجلى لنا التناقض الموجود بين مفهوم توينبي للتاريخ وأساس الحركة التاريخية، ومفهوم المادية التاريخية التي تضع مفهوم التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية. بدل مفهوم الحضارة عند توينبي الذي يصور التاريخ على شكل شجرة تنمو عليها الحضارات كالغصون ولكل حضارة مميزاتها وخاصيتها التي تنفرد بها، فمن وجهة نظر المادية التاريخية، أن مرحلة التمدن هي بمثابة مرحلة تحضيرية للتاريخ الحضاري الحقيقي، بينما يشكل هذا التناقض الصفة المميزة لمفهوم المدنية عند توينبي، مفهوم التشكيلة في المادية التاريخية، في حين كتب انجلر عن مراحل المدنية المتشكلة بواسطة خمسة أشكال وهي: النظام المشاعي البدائي، المجتمع البدائي العبودي، الإقطاعية، الرأسمالية، الشيوعية، بيما كل مادية تنشأ عن طريق أسلوب إنتاج محدد.

وفي النهاية تود أن نشير إلى أن نولد توينبي، يختلف تماما في فهم عملية التاريخ، بيد أنه يرى أن الطريقة الوحيدة هي اللجوء إلى الثقافة والحضارة و القيم الأخلاقية والروحية، فالشعوب مختلفة من ناحية التفكير وكذلك في محاولة الوصول إلى الحقيقة.

عن موقع الحوار المتمدن

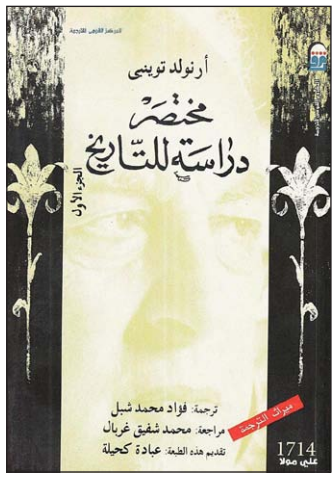

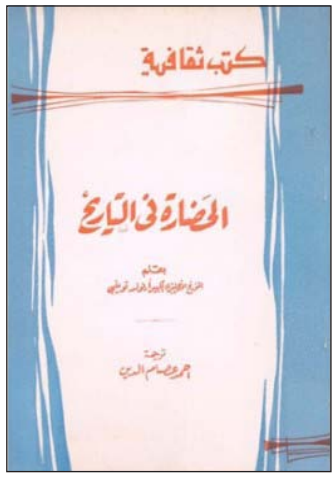

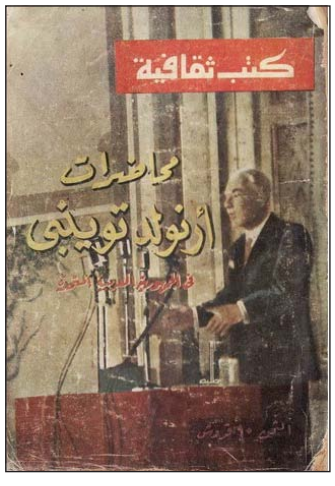

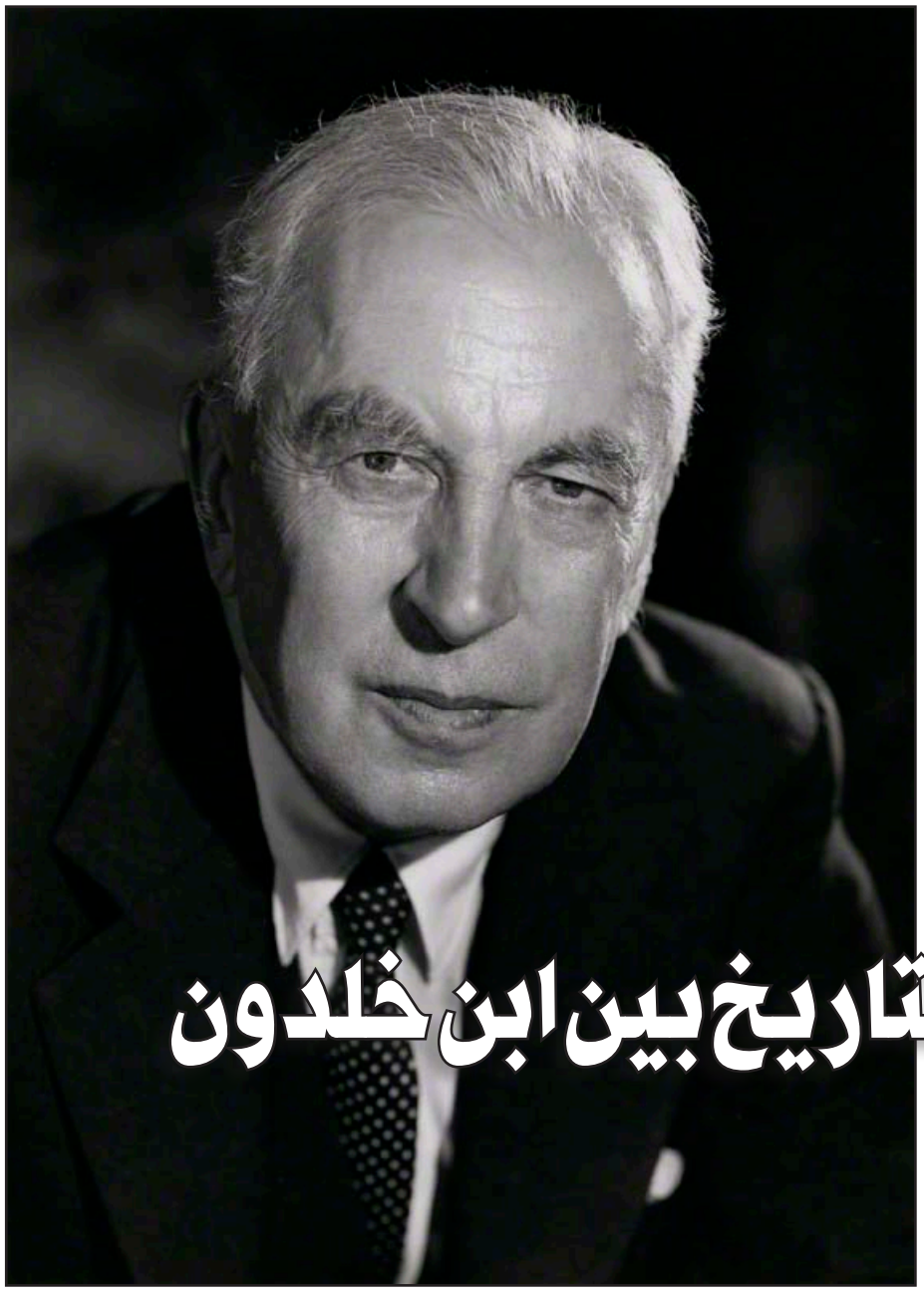

التفسير الحضاري للتاريخ بين ابن خلدون وأرنولد توينبي

يتناول موضوع البحث مؤرخين كبيرين من فلاسفة التاريخ، لكل منهما ثقافته الخاصة التي تنتمي لعصره ولعقيدته. فابن خلدون يمثل الثقافة والحضارة الإسلامية العربية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ويمثل توينبي الثقافة والحضارة الغربية المسيحية في القرن العشرين، وكل منهما يمثل مدرسة تاريخية خاصة به.

ابن خلدون: احتلت أسرة ابن خلدون مكانة مرموقة في شمال أفريقيا، وقد هاجر أجداده الأول من حضرموت إلى الأندلس، وكانت من أقوى أسر ثلاث في إشبيلية، ثم رحلوا بعد ذلك إلى تونس.

ولد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي في أول رمضان ٧٣٢ هـ/ ٢٧ مايو ١٣٣٢ م في تونس، واهتم والده - وهو من العلماء - بتربيته، فحفظ القرآن الكريم، ودرس الفقه، والحديث، والأدب، وحفظ الكثير من الأشعار. وقد تأثر باثنين من علماء تونس المشهورين وهما: عبد المهيمن إمام المحدثين والنحاة بالمغرب، ومحمد بن إبراهيم الآيلي شيخ العلوم العقلية.

محمد محمود السروجي

باحث مصري

قسم ساطع الحصري([٢])تاريخ حياة ابن خلدون بعد إتمام تعليمه ودخوله معترك الحياة إلى ثلاثة أدوار:

الدور الأول (١٣٥٢ - ١٣٧٤)، حيث اشتغل فيه بالأمور السياسية في بلاد المغرب. فعاش في أجواء الدسائس والمؤامرات، فعمل حيناً لدى حاكم تونس، ثم انتقل إلى المرينيين بفاس، وبعدها إلى بلاط ابن الأحمر بالأندلس. ثم عاد ليتولى منصب الحاجب لدى أمير بجاية. وأخيراً، اعتزل السياسة ليلجأ إلى القبائل العربية، لمساعدة صاحب تلمسان تارة، وصاحب فاس تارة أخرى([٣]).

الدور الثاني (١٣٧٤ - ١٣٧٨)، وهو دور الانطواء والعزلة، حيث عكف فيه عند أولاد بني عريف، بقلعة ابن سلامة على كتابة "المقدمة". وكانت نقطة تحول فاصلة، ابتعد بعدها عن السياسة، وانصرف إلى التأليف.

وعرفت "المقدمة" في أوربا في القرن الثامن عشر باسم "فلسفة التاريخ"، وفي القرن التاسع عشر باسم "علم التاريخ" أو "المدخل إلى التاريخ"([٤]).

ويعلق توينبي على هذه الفترة بقوله: «إن رجل الأعمال الزائل - يقصد ابن خلدون - عاد إلى الظهور من عزلته، وقد تغير شكله نهائياً إلى شكل الفيلسوف الخالد، الذي لا يزال فكره يعيش في عقل كل من يطالع "المقدمة"».

والدور الثالث (١٣٧٨ - ١٤٠٦)، انصرف فيه إلى التدريس وممارسة القضاء. ويميل بعض الباحثين الغربيين إلى تقسيم حياة ابن خلدون الفكرية إلى مرحلتين([٥])، هما: المرحلة الأولى، وهي التي ولع فيها بالعلوم العقلية، وتشمل الفترة منذ أن كان طالباً حتى رحلته إلى القاهرة.

والمرحلة الثانية، وفيها أعرض عن العلوم العقلية الفلسفية بصفة عامة، وانصرف إلى التصوف والعلوم الدينية، تمشياً مع الأجواء السائدة في القاهرة حينذاك، حيث أخذ في إجراء بعض التعديلات والإضافات على "المقدمة". وقد لقب ابنَ خلدون، لقّبَه معاصروه بألقاب كثيرة حسب المناصب التي تولاها، مثل الوزير، والرئيس الحاجب، والصدر الكبير، والفقيه الجليل، وعلاّمة الأمة، وإمام الأئمة، وجمال الإسلام والمسلمين([٦]).

توينبي: أما عن تاريخ حياة أرنولد توينبي، فقد ولد في أواخر القرن التاسع عشر في ١٤ أبريل ١٨٨٩ بمدينة لندن في أسرة متوسطة. فكان والده يعمل موظفاً بشركة للشاي. أما والدته، فكانت حاصلة على بكالوريوس في التاريخ، وهي التي حببته في دراسة التاريخ، وكان لها اهتمام بالشؤون العلمية والاجتماعية. وكان عمه أرنولد من كبار المؤرخين الاقتصاديين.

تلقى توينبي تعليمه بكلية ونشستر لمدة خمس سنوات، ثم أكمل دراسته بجامعة أكسفورد في التاريخ القديم والأدب الكلاسيّ. وبعد تخرجه، عين مدرّساً بها من ١٩١٢ إلى ١٩١٥. وقد درس اليونانية القديمة واللاتينية، وبرع فيهما، وتأثر بكتابات المؤلفين القدامى([٧])، واهتم بالحضارة اليونانية بصفة خاصة. ومنذ عام ١٩٢٥، تولى الإشراف على معهد الشؤون الدولية الملكي، وعمل أستاذاً متخصصاً في التاريخ الدولي في جامعة لندن.

كما عمل في المجال السياسي، فكان عضواً بارزاً في مؤتمرات السلام في باريس عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٩، وقام بنفس المهمة في مؤتمر الصلح الذي أعقب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥.

عصر ابن خلدون عاش ابن خلدون في فترة منعطف تاريخي خطير، مرت بالعالم العربي الإسلامي بعامة، وبلاد المغرب العربي بخاصة. فالقرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي قد شاهد الكثير من النكبات([٨]) والمحن التي حلت به، فتعرض لهجمات التتار من الشرق، وانكماش الحكم الإسلامي في الأندلس من الغرب، زد على ذلك تناحر الأسر الحاكمة، ومؤامراتها، وحروبها التي لا تنقطع، والطاعون المدمر الذي اجتاح البلاد وخربها.

هذا، إلى جانب الجمود الفكري الذي عبر عنه ابن خلدون بقوله: «كسدت لهذا العهد أسواق العلم لتناقص العمران فيه، وانقطاع سند العلم والتعليم»([٩]).

وقد عبر ابن خلدون عن هذه الأوضاع المأساوية بعبارة موجزة بليغة: «كانت دلائله - يقصد العصر - تشير كلها إلى أن شمس الحضارة العربية الإسلامية آخذة في الأفول»([١٠]).

وقد وصف جاك بيرك (Jacques Berque) هذا العصر «بأنه من أسوإ العصور التي عرفتها حضارات البحر المتوسط»([١١]).

كما أن الانتعاش الاقتصادي الذي شهدته بلاد المغرب بشمال أفريقيا عقب دخولها في الإسلام، ونتيجة ارتباطها بطرق تجارية بالسودان وإسبانيا وصقلية، وبالمشرق الإسلامي قبل عهد ابن خلدون، قد تبدل في أيامه نتيجة تراجع قوة المسلمين البرية بعد أن حلت قوة أوربا البحرية محلها([١٢]).

في هذه الأجواء المليئة بالنكبات والمؤامرات، عاش ابن خلدون، وتفاعل معها، واكتوى بنارها، وأسهم في بعضها. ومن ثم فآراؤه ونظرياته كانت نتاج تجربته الشخصية في المجالات السياسية والاجتماعية، ومصدر أساسي من مصادر فكره، صقلتها دراساته للكتب التاريخية التي دونها الأقدمون والمعاصرون له، فضلاً عن جولاته في المغرب والمشرق العربي الإسلامي، فهي بلا شك تحمل طابع عصره.

وقد حفز ابن خلدون على كتابة تاريخه "العبر" و"مقدمته" حدثان هامان، كان لهما تأثير كبير على بلاد المغرب هما: الطاعون الكاسح، ودخول البدو منذ أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي([١٣]).

عصر توينبي لقد عاصر توينبي منذ مطلع القرن العشرين أحداثاً أوربية جساماً. ففي عام ١٩٠٤ انتهى تقريباً التنافس الإنجليزي الفرنسي بعقد الاتفاق الودي بين الدولتين على حساب مصر ومراكش بصفة خاصة. وبدأ التنافس الإنجليزي الألماني بعد أن برزت أطماع ألمانيا الاستعمارية، وبعد أن أخذت ألمانيا تعزز قواتها البحرية، محاولة بذلك القضاء على السيادة البحرية الإنجليزية.

وبدأت السحب تتراكم في سماء العلاقات الدولية، مما أدى إلى انقسام أوربا إلى معسكرين متحاربين. وانتهت الحرب بانتصار معسكر إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية على معسكر دول وسط أوربا ألمانيا والنمسا والمجر والدولة العثمانية، وعقد مؤتمر فرساي لتسوية الأوضاع الأوربية في عام ١٩١٩. ومثل توينبي إنجلترا في هذا المؤتمر، وفيه فرضت على ألمانيا بصفة خاصة شروط مجحفة.

ثم أنشئت عصبة الأمم لإقرار الأمن والسلم الدوليين.

كذلك عاصر توينبي الأزمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٣٠ التي عصفت باقتصاديات العديد من دول العالم بما أحدثته من كساد اقتصادي كبير. وأعقب ذلك محاولة ألمانيا التخلص من شروط معاهدة فرساي المجحفة بها، بعد وصول الحزب النازي إلى الحكم في الثلاثينيات من القرن العشرين وإعادة تسليح ألمانيا.

وفي الوقت نفسه، وصل الحزب الفاشي إلى الحكم في إيطاليا. وبدأ يتطلع إلى الاستيلاء على الحبشة عام ١٩٣٥، وأرسل حملة لهذا الغرض. وعندما عارضته عصبة الأمم، انسحب منها. وكذلك فعلت ألمانيا. وبدأت نذر الحرب العالمية الثانية تظهر في الأفق، وانقسمت أوربا إلى معسكرين متحاربين: معسكر الحلفاء ويضم إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، ومعسكر المحور ويضم ألمانيا وإيطاليا واليابان. وقد بلغت خسائرها البشرية حوالي ٥٠ مليون نسمة، غير المدن التي خربت وأبيدت. وخرجت منها إنجلترا منهوكة القوى، وتراجعت إلى دول الصف الثاني. وانقسم العالم إلى معسكرين: الأول المعسكر الرأسمالي والذي تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية، والمعسكر الشيوعي والذي يتزعمه الاتحاد السوفييتي، وبدأت الحرب الباردة بينهما. ووجدت دول العالم الثالث أن من مصلحتها تكوين جبهة دول عدم الانحياز لتخفيف حدة الصراع الدولي.

وفي وسط هذه الأحداث المتلاحقة والخطيرة، عاش توينبي، وتأثر بها، وشاهد تراجع بلاده (إنجلترا) عن صدارة العالم، وخشي على الحضارة الغربية أن تضمحل وتفنى كما فنيت حضارات كثيرة سبقتها حددها توينبي في إحدى وعشرين حضارة، منها خمس حضارات ما زالت باقية، ومنها الحضارة الغربية.

وقد أكدت نظريته التي استخلصها من دراسته لتلك الحضارات حتمية ولادتها، وازدهارها، ثم موتها. ولذا حاول إيجاد الوسائل والحلول لمنع هذا الانهيار والفناء. وهذا ما دفع الكاتب رونالد ميبرج إلى تأليف كتاب عنوانه "أرنولد توينبي مؤرخ لعصر متأزم" ([١٤]).

مؤلفات ابن خلدون لابن خلدون الكثير من المؤلفات، ولكن أهمها "المقدمة" التي وردت فيها آراؤه ونظرياته، ومنهجه، وفلسفته التاريخية. وقد اعتمدنا على "المقدمة" التي حققها ونشرها علي عبد الواحد وافي.

وكان علماء الغرب - قبل نشر البارون دوسلان (Baron de Slane) ترجمتها الفرنسية في مجلدين بالجزائر في ما بين سنتي ١٨٤٧ و١٨٥١ (تحت اسم:

Kitab al-duwal al-islamiyya bi-l-maghrib (Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale)، éd. William Mac-Guckin Baron de Slane، ٢ vols، Alger، ١٨٤٧-٥١.)

يظنون أن جيوفاني باتستا فيكو (Giovanni Batista Vico) (١٦٦٧-١٧٤٤) هو أول من كتب عن فلسفة التاريخ، غافلين أن ابن خلدون قد سبقه بثلاثة قرون ونصف قرن([١٥]). وقام بترجمة "المقدمة" إلى اللغة التركية([١٦]) بيريزاد (Perizade) ونشرت بالقاهرة سنة ١٢٧٥ هـ.

ومن مؤلفاته أيضاً كتاب "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، وهو السيرة الذاتية لابن خلدون وفيها دفاع عن نفسه، وقد كتبه أثناء وجوده بالقاهرة، بعد أن أوغر احتفاء السلطان الظاهر برقوق به صدور بعض العلماء([١٧]).

وهناك أيضاً كتاب "لباب المحصل في أصول الدين"، وكان ضمن مخطوطات مكتبة الإسكوريال([١٨])، وقام بنشره وتحقيقه المستشرق لوسيانوروبيو في تطوان ١٩٥٢.

وأضخم مؤلفات ابن خلدون كتاب "العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، وقسمه المؤلف إلى مقدمة وثلاثة كتب:

المقدمة: في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه، والإلماع بمغالط المؤرخين.

الكتاب الأول: في العمران، وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان، والكسب، والمعاش، والصنائع، والعلوم، وما إلى ذلك من العلل والأسباب.

الكتاب الثاني: في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة إلى هذا العهد، وفيه الإلماع ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل النبط، والسريانيين، والفرس، وبني إسرائيل، والقبط، واليونان، والروم، والترك، والفرنجة.

الكتاب الثالث: في أخبار البربر، ومن إليهم من زناتة، وذكر أوليتهم وأجيالهم، وما كان لهم بديار المغرب، خاصة من الملك والدول([١٩]).

والكتاب يشتمل على سبعة مجلدات: أولها المقدمة، ومن المجلد الثاني إلى المجلد الخامس، أطلق عليه المؤلف اسم الكتاب الثاني، ويتضمن تاريخ العرب وتاريخ الإسلام، وتاريخ المشرق، وقد جمعها من مؤلفين سابقين.

وأما المجلدان السادس والسابع، فيطلق عليهما الكتاب الثالث، ويشتمل على أخبار البربر، وتاريخ المغرب. وينتهي المجلد السابع بالتعريف([٢٠]) بابن خلدون.

ولكتاب "العبر" طبعة كاملة واحدة هي طبعة بولاق القديمة([٢١])، ولكن له "المقدمة" طبعات مستقلة، وكذلك "التعريف".

وأهم وأقيم ما ذكر في كتاب "العبر" ما دونه المؤلف عن بلاد المغرب. فهو جد أصيل، لأن ابن خلدون كان شاهد عيان، وتنقل في دول المغرب، وأسهم في أحداثها عن طريق توليه بعض المناصب الهامة والرفيعة. ونظراً لقيمته التاريخية، فقد ترجم هذا الجزء بالذات إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان:

Kitab al-duwal al-islamiyya bi-l-maghrib (Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale)، éd. William Mac-Guckin Baron de Slane، ٢ vols، Alger، ١٨٤٧-٥١.

وطبع مرة ثانية في عامي ١٩٢٥ و١٩٢٧.

ومما تجدر ملاحظته أن « التعريف بابن خلدون "الذي ألحق بالمجلد السابع وقف عند سنة ٧٩٧ هـ/ ١٣٩٥ م، ولكن ابن خلدون واصل بعد ذلك تدوين ترجمته، مع إضافات جديدة، حتى عام ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥ م تحت عنوان "التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غرباً وشرقاً". وقد ظل مخطوطاً حتى عام ١٩٥١ عندما قامت بنشره لجنة التأليف والترجمة والنشر، محققاً بيد محمد بن تاويت الطنجي.

وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب - وكان صديقاً حميماً لابن خلدون - مؤلفات كثيرة لابن خلدون لم يذكرها هو نفسه في كتابه "التعريف". ويبدو أنها كانت »بمثابة كراسات الدرس أو التدريس العارية من الآراء المبتكرة. ولذلك لم يتباهَ بها ابن خلدون، فلم يذكرها في ترجمة حاله«([٢٢]).

مؤلفات توينبي

كتب توينبي الكثير من الكتب والبحوث في الدوريات العلمية المختلفة. وسنكتفي بذكر الكتب التي وصلت إلينا.

- Greek Historical Thought.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية لمعي الطيعي تحت عنوان "الفكر التاريخي عند الإغريق" ضمن سلسلة الألف كتاب التي يصدرها المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية عام ١٩٦٦.

- The World After Peace Conference، London، ١٩٢٥.

وقام بترجمته إلى العربية تحت عنوان "الحضارة في الميزان" أمين محمود الشريف، بتكليف من الإدارة العامة للثقافة بوزارة التربية والتعليم، وطبع بدار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٨.

- War and Civilization، London، ١٩٥١.

- The World And The West (The Reith lectures))، ١٩٥٢.

- An Historian's Approach To Religion، Oxford University Press، London، ١٩٥٦.

- East To West-A Journey Roud The World، London، ١٩٥٨.

- A Study of History، Oxford University Press، Amen House، Twelve Vols، London، ١٩٥٦.

- Half The World: The History and Culture of China and Japan، London، ١٩٧٣.

وأهم تلك الكتب التي نالت شهرة عالمية، والتي جعلت من توينبي أهم المؤرخين الفلاسفة في العصر الحديث كتاب "دراسة التاريخ". لم يصدر هذا الكتاب دفعة واحدة، فنشرت الأجزاء الثلاثة الأولى في عام ١٩٣٤، وتبعتها الثلاثة الأجزاء التالية في عام ١٩٣٩، وبعدها بخمسة أعوام، أي في عام ١٩٥٤، صدرت الأجزاء الأربعة التالية. وقد أحدث صدور العشرة الأجزاء دوياً في الأوساط العلمية، وظهرت الانتقادات والتعليقات على ما ورد بالكتاب من موضوعات.

وتلاها الجزء الحادي عشر متضمناً الخرائط التاريخية. وفي عام ١٩٦١ صدر الجزء الثاني عشر، وفيه ردود المؤلف على نقاده، شارحاً لهم ما خفي عليهم فهمه، ومصحّحاً بعض ما ذكر من وقائع في أجزاء الكتاب. ونظراً لضخامة حجم الكتاب، وتخفيفاً على القراء، قام سمرفيل (D.C. Somervell) بتلخيصه في مجلدين اثنين. صدر الجزء الأول في عام ١٩٤٦، متضمناً خلاصة الأجزاء من ١ - ٦، وتلاه الجزء الثاني عام ١٩٥٧، ويشتمل على خلاصة الأجزاء من ٧ - ١٠.

وتعميماً للفائدة على نطاق أوسع، قام الأستاذ سمرفيل بتلخيصه في مجلد واحد، وقام بنشره المعهد الملكي للشؤون الخارجية (Royal Institute of International Affairs) في عام ١٩٦٠.

وإلى جانب هذا النشاط العلمي في مجال التأليف، قام بالإشراف على تحرير حولية الشؤون الدولية Survey of International Affairs من عام ١٩٢٠ - ١٩٣٨. هذا، فضلاً عن مواصلة الكتابة في صحيفة "الأوبزرفر" لمدة عشرين عاماً متصلة؛ كما أشرف على المعهد الملكي للشؤون الخارجية من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٥٥. هذا، بالإضافة إلى العديد من الأسفار، تلبية للدعوات التي وجهت إليه من مختلف المؤسسات العلمية، لإلقاء بعض المحاضرات، كما منح عدة درجات فخرية تقديراً لمكانته العلمية.

نظرة ابن خلدون وفهمه للتاريخ

لقد نشأ علم التاريخ في الإسلام ملازماً لعلم الحديث. فعلى سبيل المثال، نجد أن المؤرخ ابن جرير الطبري، وهو من علماء الحديث، ومن المفسرين الذين اهتموا بجمع الحديث وتدوينه، قد اهتم إلى جانب ذلك بكتابة تاريخه الكبير "تاريخ الأمم والملوك". وقد استفاد علم التاريخ من منهج المحدثين في التحري والتدقيق في جمع الصحيح من الأحاديث. وكانت نظرة ابن خلدون إلى علم التاريخ نظرة تبجيل وتقدير. فيقول عنه في "مقدمته" له: »جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا«([٢٣]). وهو - في رأيه - علم »نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها خليق«.

ومن ثم فإن دراسته تنعكس على حاضر الإنسان ومستقبله. فإذا حزب الإنسان أمر في حاضره، لجأ إلى ماضيه يستمد منه العون لحل مشكلة الحاضر، كما أن دراسته تنير له طريق المستقبل.

ومما هو جدير بالذكر أن علم التاريخ كان قد بلغ في زمن ابن خلدون من التأخر والانحطاط، مسايراً الانهيار الذي أصاب الحضارة الإسلامية وقتذاك (القرن الرابع عشر). وقد عاب ابن خلدون على مؤرخي المغرب تقصيرهم في تدوين تاريخ بلادهم. وهذا ما دفعه إلى الاعتكاف في قلعة ابن سلامة لتدوين تاريخه عن بلاد المغرب الإسلامي من قبل ظهور الإسلام إلى عصره. وقد ساعده على ذلك دراسته لحضارات عصره، مثل الحضارة الفارسية، والسريانية، والقبطية، والرومية، والإفرنجية، والتركية، والعربية وغيرها([٢٤]). فهو من هذه الناحية يشبه إلى حد ما أرنولد توينبي.

ويمكننا القول إن "المقدمة" وكتاب "العبر" و"التعريف" تمثل منظومة واحدة استطاع ابن خلدون من خلالها أن يمزج تجربته الشخصية بدراسته للحضارة الإسلامية منذ نشأتها حتى عصره، ليخرج بنظرية امتزجت فيها الذاتية والموضوعية والعقلانية وفلسفة التاريخ. فلسفته التاريخية التي تمثلت في ما أطلق عليه اسم »علم العمران«، والذي توصل إليه من خلال دراسته التاريخية والحضارية، تعني عنده »القضايا الديمغرافية والاقتصادية، كما تعني النشاطات الاجتماعية، والسياسية، والثقافية. فالأمر إذن يتعلق بمجمل الظاهرات الإنسانية«([٢٥]).

وقد اتخذ ابن خلدون من هذا العلم معياراً لقياس صحة الأخبار. ومن ثم فقد وجه ابن خلدون النقد للمؤرخين الذين سبقوه، والذين لم يعرفوا قوانين »علم العمران" بأنهم حرموا أنفسهم من هذا المعيار([٢٦]).

ولذا فالذين تناولوا الحديث عن ابن خلدون

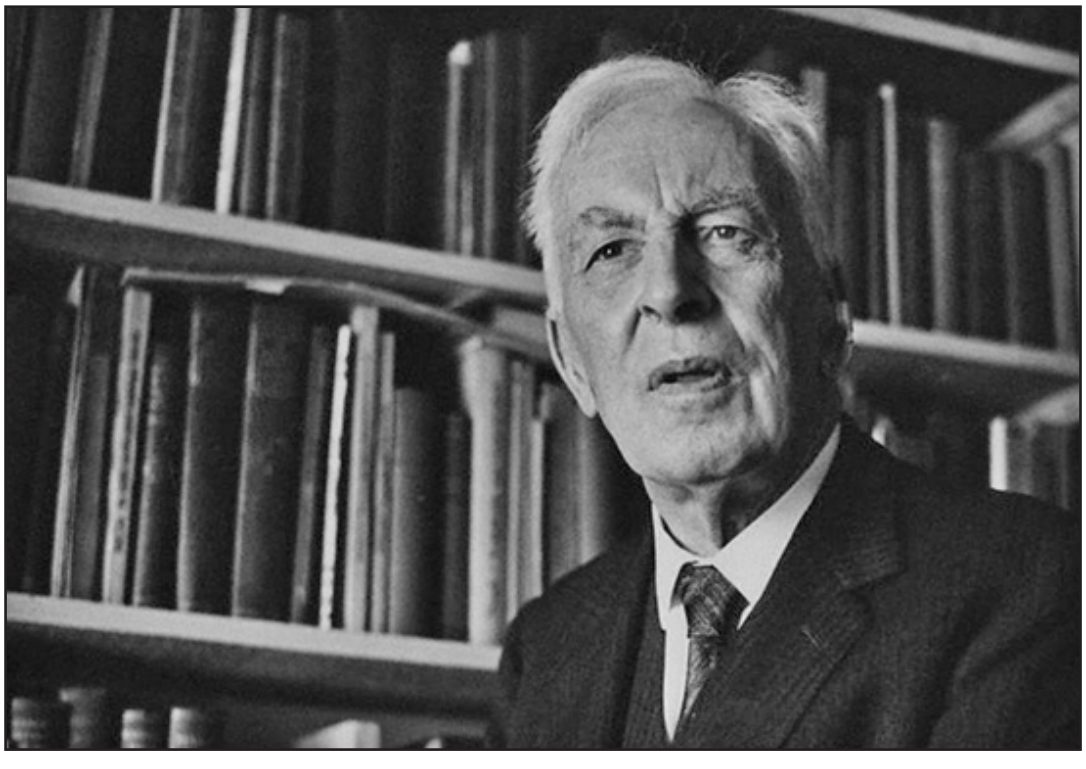

قبل اعتكافه بقلعة ابن سلامة لم يصفوه بصفة المؤرخ، ولكن هذه الصفة لازمته بعد فترة القلعة إلى نهاية عمره.

نظرة توينبي للتاريخ

إن حب توينبي للتاريخ يرجع إلى أيام طفولته المبكرة. فقد أرضعته أمه حبه؛ فيذكر أن أمه كانت حاصلة على درجة البكالوريوس في علم التاريخ، وعودته أن تقص عليه وهو في فراش النوم قصة – كما اعتادت الأمهات على ذلك – ولكنها لم تكن أية قصة. فقد آثرت أن تتناول كل قصة حلقة من حلقات تاريخ إنجلترا منذ القدم حتى ذلك الوقت. فشب الطفل مولعاً بقراءة الكتب التاريخية بعد الفراغ من واجباته المدرسية.

فيقول: »وكانت كتب التاريخ هي أكثر الكتب التي أجد نفسي مشدوداً إليها شدًا، فكنت أمضي معها كل ساعات النهار، وجانباً طويلاً من الليل«([٢٧]).

ومن ثم فقد انكب على دراسة الحضارات البائدة، وكذلك الحالية، دراسة عميقة، للوقوف على أسباب انهيارها وزوالها، وذلك خشية أن يمتد هذا الفناء المحتوم إلى الحضارة الغربية التي يمثلها، وصولاً إلى إيجاد الحلول الواجب اتخاذها للحيلولة دون ذلك.

ويرى توينبي أن الإنسان لا يصبح مؤرخاً إلا إذا حركه حب الاستطلاع على ذلك، بل إن حب الاستطلاع وحده غير كاف، إذا لم يوجه نحو تحقيق غاية بعينها([٢٨]).

كما كان يؤمن بأن التاريخ إنجاز للخطة الإلهية، وهو إبداع الله في حركته، من الله منبعه وإلى الله غايته. وقد تأثر في هذه النزعة الدينية بالقديس أوغسطين([٢٩]).

منهج ابن خلدون

إن التجربة القاسية التي مر بها ابن خلدون، وما تعرض له من سجن وتشريد، وتنكر من الأصدقاء جعله يعتزل الحياة السياسية، ويتفرغ لكتابة التاريخ. وذكر كثيرون من المؤرخين أن فترة الاعتزال بدأت عندما اعتكف بقلعة ابن سلامة، ولكن الحقيقة أن اعتزاله السياسي وعزوفه عن المناصب السياسية قد سبق هذا بعشر سنين، أي في سنة ٧٦٧ هـ التي نكب فيها أمير بجاية الذي كان ابن خلدون يتولى لديه منصب الحجابة.

ومن ثم فقد غادر البجاية إلى البادية، أي غادر العمران الحضري إلى العمران البدوي، حيث أحس أن الدول المغربية في طور هرمها. ومن المرجح أن تكون نظرياته السياسية والاجتماعية قد بدأت في التكون في هذه الفترة([٣٠])، ولا سيما أنه قد مكث وسط القبائل مدة سبع سنوات. فلابد أن يكون قد لفتت نظره ظاهرة العصبية، وهي من الظواهر الاجتماعية الأساسية في العمران البدوي، أي أنه استطاع أن يجمع بين العمران الحضري خلال إقامته في حواضر المغرب، والعمران البدوي.

ومعنى هذا أن حصيلة ابن خلدون من استيعابه للأوضاع السياسية والاجتماعية في بلاد المغرب، بالإضافة إلى تجاربه الشخصية، كانت ذخيرته عندما لجأ إلى قلعة ابن سلامة لتدوين تاريخه. فما كان منه إلا أن أفرغ ما في عقله في كتابة "المقدمة" – كما ذكر – في خمسة شهور، حيث يقول: »أتممت هذا الجزء الأول بالوضع والتأليف، قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة أشهر، آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمئة، ثم نقحته بعد ذلك وهذبته، وألحقت به تواريخ الأمم«([٣١]).

قسم ابن خلدون "المقدمة" إلى ستة أبواب. يتناول الباب الأول العمران البشري وضروراته. ويتضح منذ البداية أن الدولة أو الملك هو الذي يهدف إليه من هذه الدراسة. فالاجتماع – كما أوضح – ضروري للإنسان، ولكنه لا يتحقق إلا بوجود وازع (حاكم أم ملك) »تكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان. وهذا هو معنى الملك. وقد تبين لك بهذا أنه خاصة للإنسان طبيعته ولابد لهم منها«([٣٢]).

أما الباب الثاني، فخاص بالعمران البدوي، وسار فيه وفق خطة معينة تهدف في نهايتها إلى كيفية نشوء الدولة. وفي الباب الثالث، يعالج أصل نشوء الدولة ومراحل تطورها، ثم هرمها. وبعد ذلك، يتعرض للوظائف السلطانية ومالية الدولة.

أما الأبواب الثلاثة الأخيرة، فتتناول بالبحث »مختلف الظواهر المرافقة لقيام الدول أو الناتجة عنها، كبناء المدن، وتشييد الآثار، وأنواع الكسب، ثم أنواع النشاط الفكري والثقافي«([٣٣]).

يذكر ابن خلدون أنه كان يريد الاكتفاء بكتابة تاريخ المغرب وحده »دون ما سواه من الأقطار لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأممه، لأن الأخبار المتناقلة لا تفي كنه ما أريد منه«([٣٤]). ولكنه أحس بضرورة كتابة أخبار المشرق. وكان هذا العمل يتطلب السفر إليه، ليقف بنفسه على أحواله، فيقول: »فأفدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار، ودول الترك فيما ملكوه من الأقطار«([٣٥]).

وقد بدأ ابن خلدون بحوثه في العمران البشري بست مقدمات([٣٦])، تناول في الأولى ضرورة الاجتماع ووجود السلطة، وفي الثانية »قسط العمران في الأرض«، وفي الثالثة »تأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم«، وفي الرابعة »أثر الهواء في أخلاق البشر«، وفي الخامسة »اختلاف أحوال العمران من الخصب والجوع، وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم«، وفي السادسة تحدث عن »أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو الرياضة«.

ومن ناحية العمران البشري، قسمه ابن خلدون إلى قسمين: العمران البدوي وهو الأصل([٣٧])، ويضم أولاً البدو الرحل، ثم رعاة الشاة المتنقلين، ثم المقيمين في التلال والسهول المشتغلين بالزراعة. وتجمع هؤلاء رابطة النسب الحقيقي أو الوهمي، والعصبية([٣٨]).

وقد فسر روزنتال([٣٩]) (Rosenthal) العصبية تفسيراً يقرب من الصواب بأنها

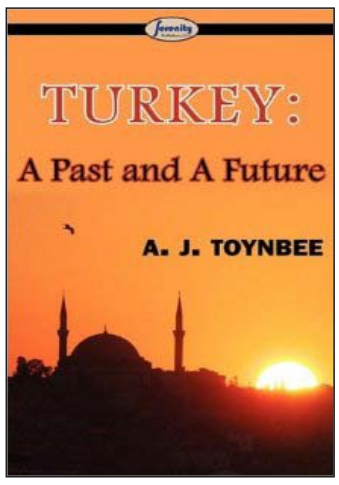

»القوة المحركة لصيرورة الدولة«. وقد فسرها سلفستر دي ساسي([٤٠]) (Silvestre de Sacy) »الروح العام" وفسرها عيساوي شارل([٤١]) (Issawi Charl) بـ»التضامن الاجتماعي«. وقد فسرها توينبي بـ»الجبلة النفسية التي تبنى عليها كل الأجهزة السياسية وكل الأجهزة الاجتماعية«([٤٢]).

ويذكر لاكوست أن تفسيري دي سلان وروزنتال للعمران البدوي بـ»الحياة البدوية« تفسير قاصر، وذلك لأن تفسير ابن خلدون يتجاوز هذا، فيشمل نشاطات القبائل البدوية في الأرياف والسهول والصحارى، وكل ما هو خارج المدن الكبرى([٤٣]).

فالعمران البشري عند ابن خلدون يتدرج من البسيط، أي العمران البدوي، إلى المعقد أو المركب، وهو العمران الحضري، طبقاً لاختلاف طبيعة الأرض، من حيث الجدب أو الخصب، فينشغل الأفراد في البادية بتحصيل الضروري من العيش، مع تشتتهم، وتبعثر جهودهم، وقلة تعاونهم([٤٤]).

والتطور من العمران البدوي إلى العمران الحضري غايته الدولة أو الملك، فالغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك، ثم الفساد([٤٥]).

فالعصبية عند ابن خلدون هي وحدها الأساس الذي يقوم عليه تفسيره لنشأة الدول واضمحلالها وفنائها([٤٦]).

فالتطور العمراني عند ابن خلدون تطور دائري([٤٧])، يبدأ من البداوة إلى الحضارة مروراً بمرحلة القوة والشباب ثم الهرم، والفناء لتحل محلها عصبية أخرى، وهكذا.

وقد أدرك ابن خلدون أن كل مجتمع بدوي لابد له أن يتطور إلى مجتمع حضري، ولكن تشذُّ عن هذه القاعدة بعض المجتمعات

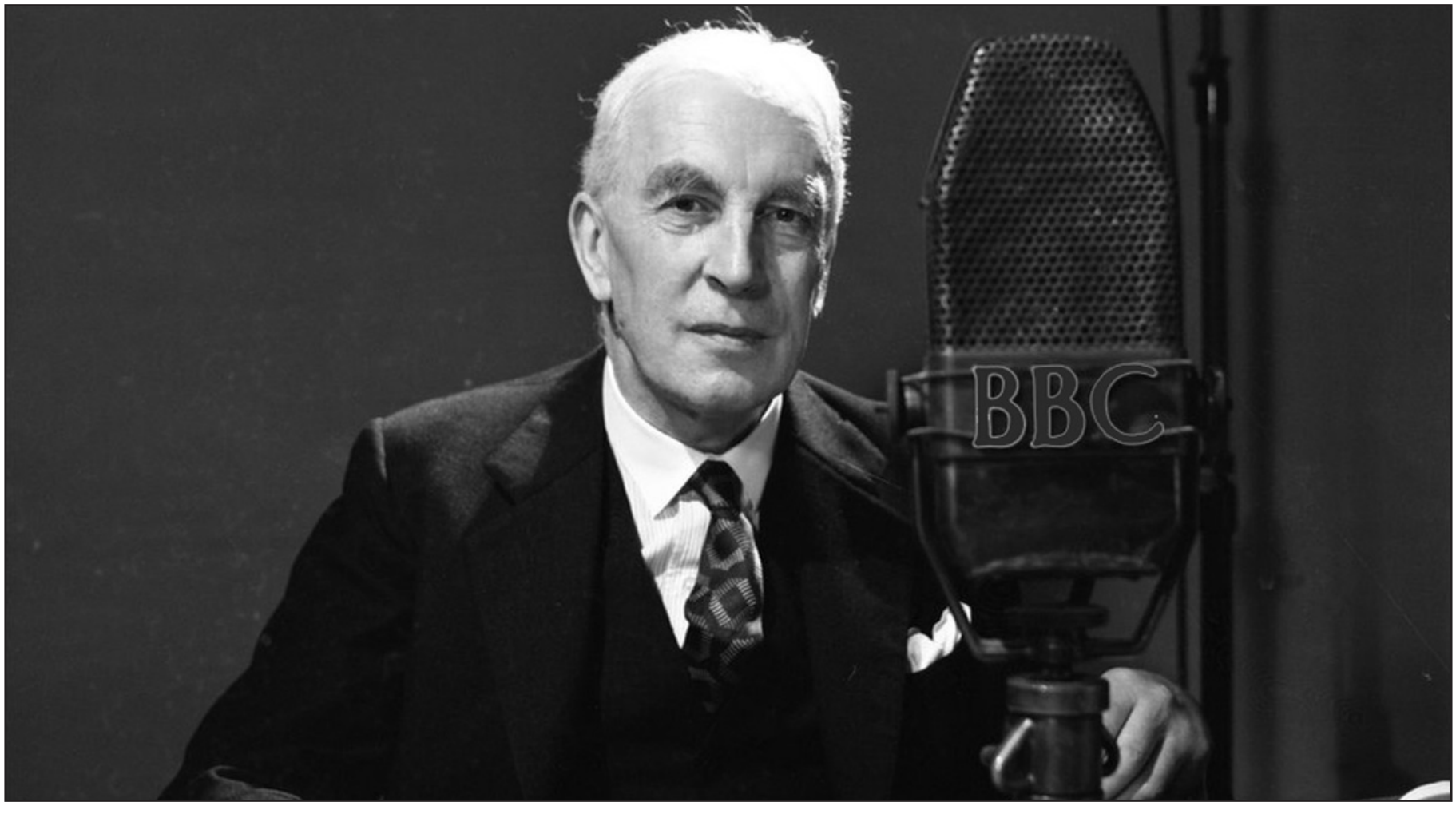

البدوية التي لم توفق إلى إتمام هذا التحول فظلت كما هي([٤٨]). وقسم ابن خلدون الملك إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الملك الطبيعي، وهو »حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة«؛

والثاني: الملك السياسي، وهو »حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار«؛

والثالث: الخلافة، وهي »حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها. فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا«([٤٩]).

وأوضح ابن خلدون أن سيطرة الدولة لا تقوم على القوة وحدها، بل على الأخلاق التي أطلق عليها اسم »الخلال«([٥٠]). فمن الضروري أن يكون للمجتمع مثل عليا دينية تنظم حياته، كما أن الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة إلى قوة العصبية([٥١]). ولذا نجد ابن خلدون يشيد بقدرة الله وبمشيئته في آخر كل فصل من فصول "المقدمة" بعد »إتمام استدلالاته واستقراءاته بالطرق العقلية والمنطقية بوجه عام«([٥٢]).

ويذكر لاكوست »أن ابن خلدون فيما يتعلق بالعالم فوق المحسوس لا يجعل اعتباراً للعقل، ويؤمن إيماناً جازماً بالمشيئة الإلهية. أما فيما يتعلق بالعالم الملموس، فابن خلدون يتصرف تصرف مفكر تجريبيّ، تجريبية منهج، لا تجريبية مذهب«([٥٣]).

وقد اهتم بالسببية والحتمية، لا الجبرية، فيقول: »إن الحوادث في عالم الكائنات، سواء كانت من الذوات أو الأفعال البشرية أو الحيوانية، فلابد لها من أسباب متقدمة عليها، بها تقع في مستقر العادة ومنها يتم كونها«([٥٤]).

إن الحضارة التي رفضها ابن خلدون، وجعلها المسؤولة عن هدم الدولة واضمحلالها، هي غير الحضارة التي نعنيها نحن في العصر الحاضر، فيعرفها بقوله إنها »التفنن في الترف، واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه، من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل«([٥٥])، أي أن الحضارة التي يقصدها هي نمط من الحياة المترفة، والمسرفة في الاستهلاك التي تحياها الطبقة الحاكمة ومن يلوذ بها. فهذا الأسلوب في الحياة مفسد للعمران كما يراه ابن خلدون. »فالبدخ والإفراط في الترف تشير إلى أعلى درجات التقدم الممكنة في العمران الحضري، كما تشير إلى نهايته وانحداره«([٥٦]).

ويختلف العمران من إقليم إلى آخر، بل إنه يختلف في الإقليم الواحد؛ كما أن طبيعة الأرض من حيث الجدب والخصب تؤدي إلى اختلاف هيئة العمران وأحواله، إذ تفرض على السكان نمطاً معيناً من الحياة المعيشية والاجتماعية([٥٧]). والعمران لدى ابن خلدون »مادته الاجتماع البشري وصورته الدولة«([٥٨]).

ويذكر الجابري أن منهج ابن خلدون »لا هو بالاستقرائي التجريبي، ولا هو بالاستنباطي المحض، بل هو مزيج منهما معاً«([٥٩]). وقيل أيضاً بأن منهجه استقرائي وصفي. ويذكر عبد الرحمن بدوي أن ابن خلدون كان:

صاحب منهج تطبيقي، وليس صاحب نظريات عامة في الدولة والنظم السياسية والنماذج العامة للمجتمع الإنساني. إن بحثه موضعي طوبولوجي وصفي... فهو لم يهدف إلى وضع فلسفة سياسية ولا حضارية، بل إلى وضع بحث مونوغرافي وصفي تطبيقي للمجتمع الإسلامي في تطوره التاريخي حتى عصره([٦٠]).

وقد نعت ابن خلدون العرب في "مقدمته" بأوصاف قاسية، فقال: »إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب«([٦١]). والسبب في ذلك ما ناله على أيدي بني هلال من الطرد والمصادرة والملاحقة. فحكمه هذا حكم ذاتي شخصي، وليس حكماً موضوعياً، على الرغم من محاولته إضفاء الموضوعية عليه.

كما أعلن »إبطال الفلسفة وفساد منتحليها«([٦٢]). فتحريمه ليس تحريماً مطلقاً، ولكن تحف به المحاذير، لأن »البحث في ما وراء الطبيعة لا يوصل إلى يقين«.

ويرى كثيرون من الباحثين أن علم العمران ينطبق على الدراسات الاجتماعية الحديثة، ومن ثم أطلقوا على ابن خلدون المؤسس لعلم الاجتماع، وذلك لاتفاق العلمين في المنهج والغاية. ولكن إذا ما أمعنا الفكر، نجد أن مجال علم العمران أضيق من مجال علم الاجتماع. فعلم العمران يهتم في المقام الأول بأسباب قيام الدول وتطورها ثم سقوطها في نهاية الأمر، بينما نجد أن علم الاجتماع يهتم بالفرد والأسرة والعلاقات الاجتماعية. ومن ثم »يبدو أن علم العمران أقرب إلى التاريخ منه إلى علم الاجتماع«([٦٣])، وبمعنى آخر يقع علم العمران بين علم الاجتماع وفلسفة التاريخ.

كما استدل ابن خلدون من خلال دراسته على أن التاريخ لا يعيد نفسه، لأنه خلق متطور ومتجدد.

وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر. إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال؛ وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول ([٦٤]).

منهج توينبي

من المبادئ الهامة في دراسات توينبي أن البحث التاريخي يجب أن يرتكز على المجتمعات وليس على الأمم التي تعتبر جزءاً منها، لأنه يرى من المستحيل دراسة تاريخ أمة من الأمم بمعزل عن الأمم الأخرى؛ فالمجتمعات هي أساس الدراسة التاريخية([٦٥]). وبناء عليه، قسم المجتمعات إلى واحد وعشرين مجتمعاً، بادت معظمها، ولم يبق منها سوى خمسة مجتمعات هي: المسيحية الغربية، والمسيحية الشرقية، والإسلامي، والهندي، والشرق الأقصى. هذا بالإضافة إلى عدد كبير جداً من المجتمعات البدائية.

وقد دفع توينبي إلى كتابة موسوعته "دراسة التاريخ" عاملان أساسيان هما: الإلمام بتاريخ عالمه المعاصر، وثقافته الهلينية. ولفت نظره من خلال دراسته لهذا العدد الكبير من الحضارات أن معظمها قد اندرس وباد، وأن الباقي في طريقه إلى هذا المصير المحتوم بما فيه الحضارة الغربية. ألح عليه البحث في معرفة الأسباب التي أدت إلى هذا الفناء أولاً، ثم أكمله بمعرفة أسباب نشوء الحضارات، وازدهارها، وأفولها.

وكان حجر الزاوية في دراسته للتاريخ اعتبار الحضارة وحدة الدراسة التاريخية([٦٦]).

وقد اتخذ توينبي من فكرة التحدي والاستجابة (Challenge and Response) مفسراً لأحداث التاريخ ومصوراً للتطور الحضاري، ومستخلصاً لنتائجه. ولم يكن توينبي هو أول من طبق نظرية التحدي والاستجابة؛ فقد طبقها هيجل (Hegel) قبله في المذهب الماركسي، وكذلك كارل ماركس (Karl Marx)، ومالتس (Malthus)، وداروين (Darwin) ([٦٧]). والحضارة - في نظره - هي محصّلة التفاعل بين الإنسان والبيئة. ورفض التفسير المادي الذي يعتنقه الماركسيون وحده لتفسير أحداث التاريخ؛ كما رفض أيضاً التفسير الديني وحده، فكل منهما وحده لا يعطينا تفسيراً مقنعاً للتاريخ.

ويقسم توينبي تحديات أو دوافع البيئة للإنسان إلى خمسة هي([٦٨]): دافع الأراضي الصعبة، ودافع الأراضي الجديدة، ودافع الكوارث، ودافع الضغوط الخارجية، ودافع العقوبات، ودافع الهجرة.

وتتعرض المجتمعات البشرية إلى صدمات (تحديات) خارجية، مثل الاحتلال الذي يعتبر تحدياً قاسياً للمجتمع. فإذا ما استجاب له، فجرت طاقاته الإبداعية الكامنة مثل غزو الهكسوس مصر([٦٩]). كما أحدثت هزيمة العثمانيين في موقعة أنقرة أمام تيمورلنك استجابة لديهم، مكنتهم بعد نصف قرن من القضاء على الإمبراطورية البيزنطية([٧٠]). وكذلك أدت هزيمة بروسيا أمام نابليون في موقعة يينا (Jena) ١٨١٣ إلى استثارة البروسيين، فجددوا نظمهم وجيشهم وهزموا فرنسا في عام ١٨٧٠([٧١]).

كذلك استثار الاندفاع العربي في الأندلس نحو الأراضي الفرنسية المجتمع المسيحي الغربي إلى الوقوف في وجهه وهزيمة العرب في موقعة تور (Tour) عام ٧٣٢([٧٢]). أما عن الجانب الحضاري، فقد أسهم علماء إسبانيا الإسلامية عن غير قصد كما يذكر توينبي:

في تشييد الصرح الفلسفي الذي أقامه فلاسفة المسيحية الغربية إبان العصور الوسطى. كما وصلت بعض مؤلفات أرسطو للعالم الغربي للمرة الأولى عن طريق التراجم العربية. فعلى أساس الصرح الثقافي الإسلامي، شيد الغربيون نهضتهم الثقافية([٧٣]).

ويعزو توينبي انهيار الحضارات إلى أسباب ثلاثة هي([٧٤]): قصور الطاقة الإبداعية للأقلية الحاكمة، وعزوف الأغلبية المحكومة عن محاكاة الأقلية، وتفكك وحدة المجتمع. ويرى أن العقل والدين ملكة من ملكات الطبيعة البشرية؛ فلا غنى لأحدهما عن الآخر. فالمجتمعات التي انتصر فيها العلم على الدين هي في كارثة، لأن علاقات الإنسان بإخوانه من البشر وصلته بربه أهم من سيطرته على المادة. فأزمة المجتمع

◄

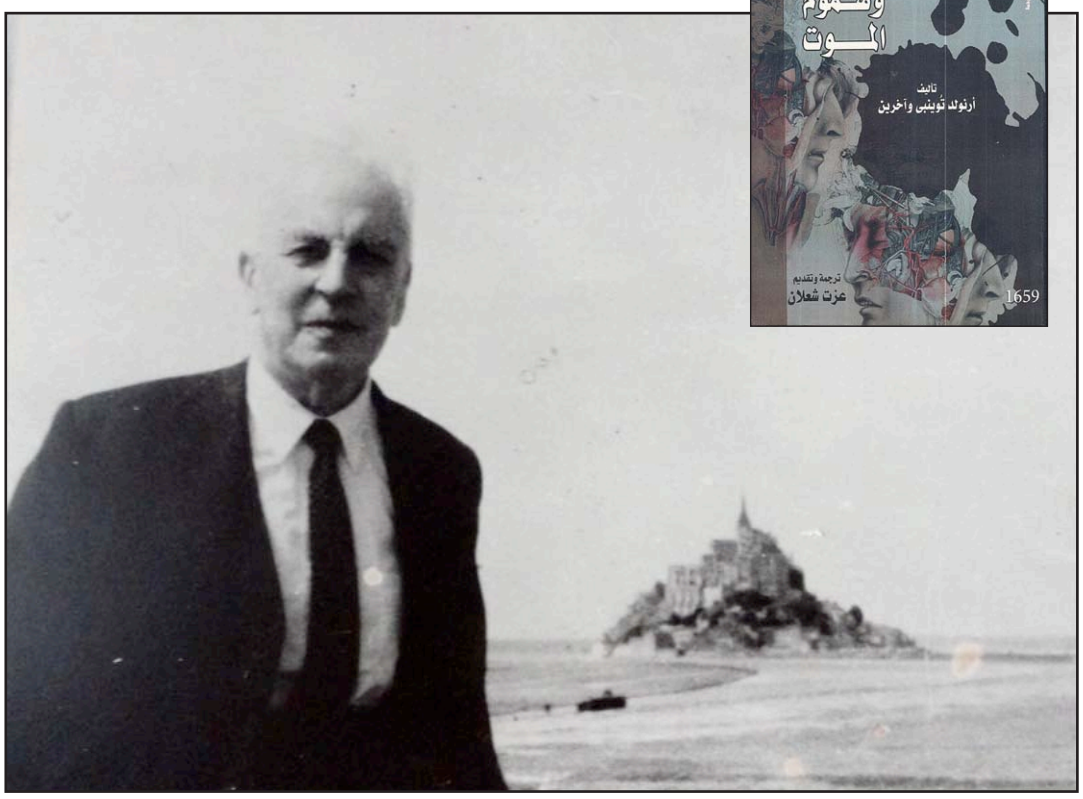

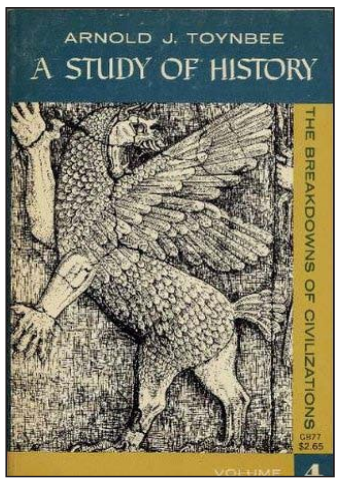

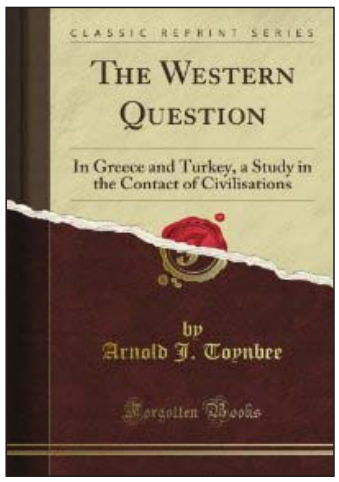

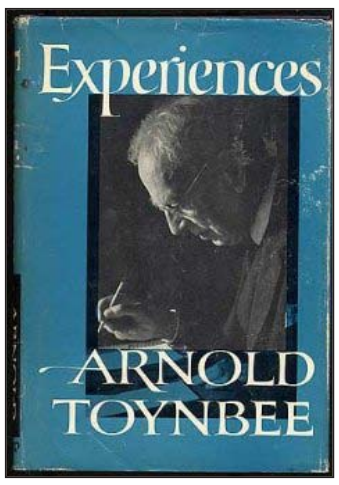

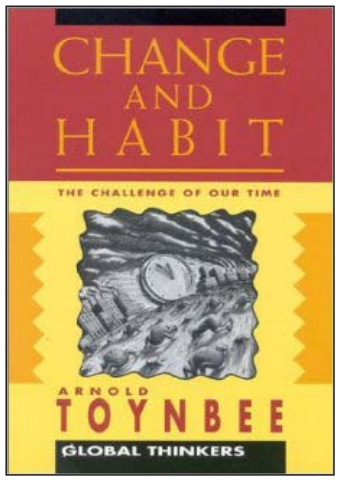

الغربي روحية وليست مادية، على الرغم ممّا بلغه المجتمع من ذروة التقدم.
ويرى توينبي أن وحدة البشر المرجوة لا تتحقق إلا بمشيئة الله، وهو بهذا يردد قول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز منذ أكثر من أربعة عشر قرناً]ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة[([٧٥])، وقوله:]لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة[([٧٦]).
ولذا يعتقد أن إنقاذ المدنية الغربية من التحلل والفناء، والخروج بها من هذا المأزق القيام بنهضة دينية، أو بدين جديد تبشر به شخصية مبدعة، هدفها رفع شأن الروح([٧٧]).
ومن رأيه أن الحضارات القديمة كالحضارة المصرية التي ظهرت في الألف الرابع قبل الميلاد، والحضارة اليونانية الرومانية التي ظهرت في الألف الثاني من القرن الميلادي، والحضارة الغربية التي ظهرت في القرن الأول الميلادي، »هذه الحضارات يعاصر بعضها بعضاً في حقيقة الأمر«([٧٨]).
وكرر هذا المعنى في كتاب آخر، فقال:

أما في المعنى الفلسفي، فإن الحضارات كانت، وما زالت، وسوف تظل متعاصرة الواحدة مع الأخرى. فهي جميعاً بنت الأسرة ذاتها، وفي الجيل ذاته. والفروق في الأعمار بينها فروق تتناهى في الصغر إذا ما قورنت بالعهد الطويل الذي عاشت خلاله الأسرة الإنسانية التي وجدت قبل مولد أية حضارة([٧٩]).

ويؤكد توينبي أنّ تميز الحضارات وتنوعها »الذي يبتدئ في الحياة والنظم البشرية هو ظاهرة سطحية تحجب خلفها وحدة كامنة للبشرية لا يضيرها هذا التنوع«([٨٠]).
ويتفق توينبي مع هيجل في دور الأفراد (الصفوة) في صنع التاريخ، كما ينادي بذلك توماس كارليل في العصر الحديث.
ولكن ليس معنى هذا أن توينبي يتفق مع دعاة العنصرية الذين يعتبرون الإنسان »النوردي« الأبيض البشرة والشعر الأصفر والعيون الزرقاء والرأس الطويل يمتاز بالعبقرية وتسند إليه كل ما حققته البشرية من تقدم وإنجاز([٨١]).
ويتفق توينبي مع اشبنجلر في أن المدنيّة الغربية في طريقها إلى الانحلال، وذلك بسبب الاهتمام الزائد بالمادة والتكنولوجيا لتنمية ثروات المجتمع دون إشباع حاجات البشر من الناحية الروحية([٨٢]). ولكن توينبي يخالفه في حتمية انهيارها، ويرى إمكانية إنقاذها بإقامة دولة عالمية، تضم كل دول العالم([٨٣])، وأن يصاحب هذا نهضة دينية على رأسها الكنيسة.
ويؤمن توينبي بفكرة انتقال الحضارات من مجتمع لآخر. فيذكر بأنه يعزى إلى الإيالات الصليبية في سوريا نقل المؤثرات الشرقية إلى الثقافة الغربية، ولكنه يعتقد أن هذه المؤثرات وفدت إلى الغرب عن طريق إيبيريا الإسلامية([٨٤]). ولكنه لا يؤمن بوحدة الحضارة، والمقصود بها الحضارة الغربية، نظراً لما أحرزته من نجاحات مادية([٨٥]).
ويرى توينبي أن هناك تشابهاً – وليس تطابقاً – بين المجتمع الإسلامي ومثيليه المسيحيين: الشرقيّ والغربيّ. وهذا التشابه ينحصر في ثلاث نقاط([٨٦]) هي:
أولاً: إن الدولة الإسلامية العالمية هي الخلافة العباسية في بغداد؛
ثانياً: النظام الديني العالمي، وهو الإسلام؛
ثالثاً: حدوث هجرات نتيجة هجوم المغول على بغداد، وبربر شمال أفريقية، وبدو شبه الجزيرة العربية.

آرنولد توينبي، مؤرخ أم فيلسوف؟

وُلد آرنولد توينبي عام ١٨٨٩ في العاصمة البريطانية لندن، في نهاية القرن التاسع عشر الذي عبّر فلاسفته الكُثر عن مشروع الحداثة، وكان أبرزهم مؤسسا الاشتراكية العلمية كارل ماركس وفريدريك إنغلز. يُعد توينبي أحد أهم مؤرخي القرن العشرين، ومن أكثر مؤلفاته شهرة كتاب (دراسة للتاريخ)، وكتاب (التاريخ البشري).
ربما ستدفعنا نظرة أخرى أكثر عمقاً لفكر توينبي أن نعيد الحسابات، ونصيغ السؤال من جديد، هل هو فيلسوف أم مؤرخ؟ قد يكون توينبي لا هذا ولا ذاك أيضاً، وقد يكون الاثنين معاً! حاول آرنولد توينبي رصد التاريخ البشري وتعيين أسباب تقدمه أو تأخره (وفق المنطق التحليلي الذي يتبعه)، بأن أضاف للتأريخ مفهوماً جديداً غاب منه الاقتصادي ضمن مؤلفاته، أو أصبح دوره هامشياً. يبرر مهدي عامل غياب الاقتصادي في الفكر الخلدوني بإعادة هذا النقص –الذي لا يعيب مادية الفكر بالمناسبة– إلى أن نمط الإنتاج السائد في الفترة الزمنية التي كتب فيها ابن خلدون مقدمته المعروفة (القرن الرابع عشر ميلادي)، لم يكن قائماً على منطق التوسع الرأسمالي الحديث الذي يفرض انتقال قوة العمل إلى دائرة الإنتاج على شكل سلعة، وإعادة الإنتاج فيه بالتالي لم تكن شاملة كما ندركها اليوم، وكان تأخر الاقتصاد حتى نهاية القرن الثامن عشر ليتشكل علماً مستقلاً نتيجة لذلك. مما يعني أن الفكر التاريخي لدى ابن خلدون متماسك داخلياً على قاعدة غياب الاقتصادي منه في الأساس.

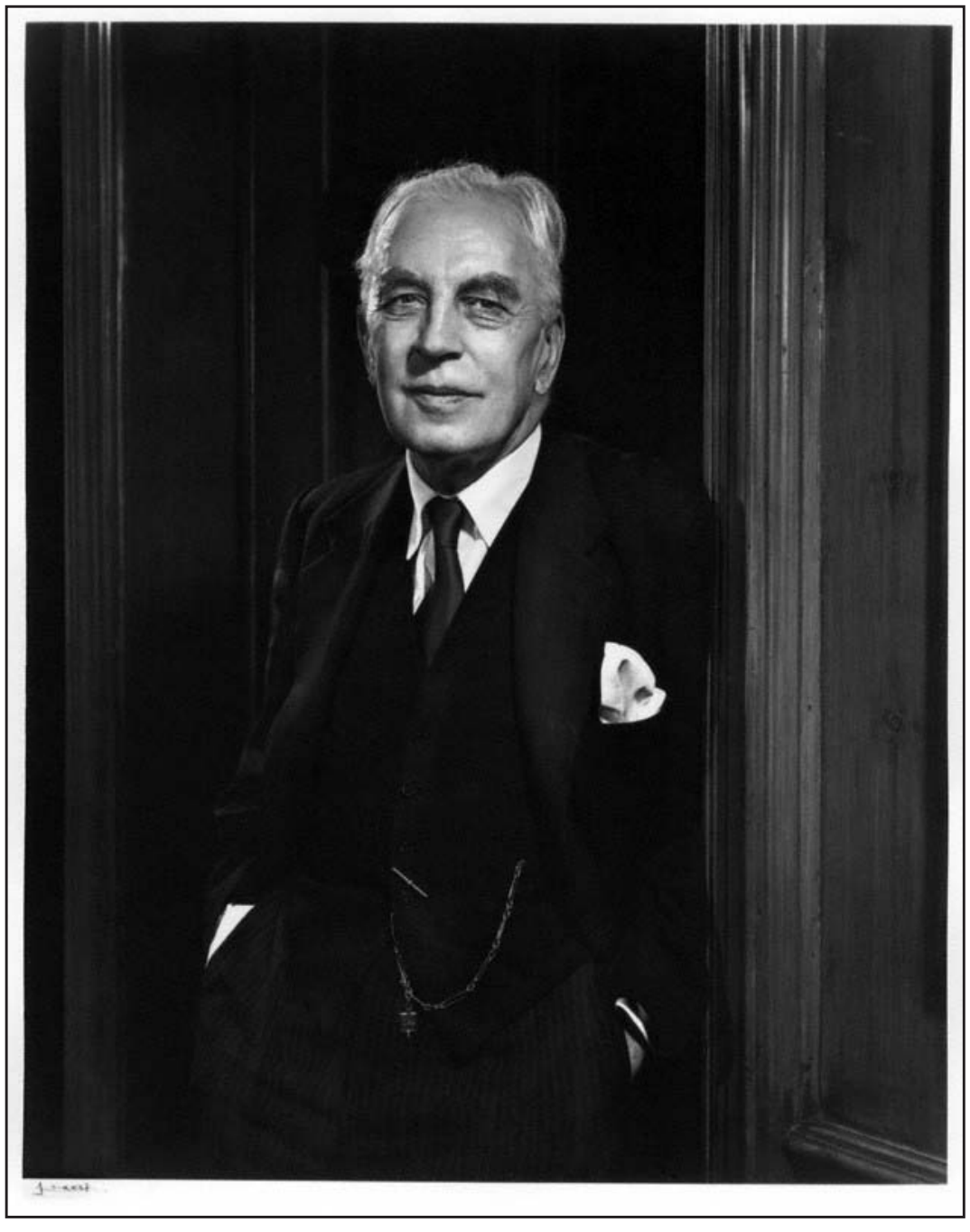

لا يمكن تبرير ذلك الآن في فكر آرنولد توينبي بوضعه تحت مجهر التاريخ، حيث أنه استبدل مفهوم أنماط الإنتاج والعلاقات الاجتماعية القائمة عليها، بمفهوم "الحضارة" لتفسير سيرورة التاريخ المادي. وبعبارة أخرى، فقد استبدل مقاييس النقد التاريخي العلمية (المادية بالضرورة)، برؤية أقرب إلى السباق الحضاري بين ركب من الحضارات المتنازعة، والتي تنشأ وتزدهر ومن ثم تتلاشى الواحدة تلو الأخرى، كما تتساقط أوراق الشجر في الخريف. هكذا يفهم توينبي حركة المجتمعات البشرية. وللتلخيص نحصر هذا الفهم بصورة عامة في ثلاث نقاط:
أولاً، لا بد في البداية من وجود أقلية مسيطرة لتتمكن من توجيه المجتمع، وحدوث أي تراجع في قدرتها على إدارة الدفة هو العامل الأول في تقويض استمرارية "الحضارة" القائمة.
ثانياً، تململ الأغلبية المحكومة وانكفائها عن الخضوع لتلك الأقلية الحاكمة.
ثالثاً، انقسام المجتمع على نفسه عقب تحقق الشرطين السابقين.
ألا يبدو لكم هذا التوصيف مبهماً بعض الشيء؟ ولماذا لا تسمّى الأشياء بأسمائها؟ أليست "الأقلية" الحاكمة التي يتحدث عنها هي طبقة تتمتع بسلطة سياسية، وتقوم بينها وبين "الأغلبية" علاقات اقتصادية اجتماعية قائمة على الاستغلال واستثمار قوة العمل؟ ألا يعبّر انقسام المجتمع على نفسه عن حركة صراع طبقي وتناقض اجتماعي، مؤداها اندلاع ثورة اجتماعية ترمي إلى تغيير نمط الإنتاج المتهالك؟
ينظر توينبي إلى هذا التغيير من خلال عدسته التي ترفع مفهوم "الحضارة" إلى المطلق وكأنه جوهر ثابت في التاريخ. وبرغم اعترافه بوجود الطبقات، إلى أنه لا يحيل لها الدور الحاسم في التاريخ.
ولنستعرض هنا فقرة قصيرة من كتاب (تاريخ البشرية) جاءت تحت عنوان "المجال الحيوي ١٧٦٣-١٨٧١ للفصل الذي ورد فيه الاقتباس: "وقد أثارت مصائب العمال الصناعيين وموافقة الطبقة الوسطى عليها، موجة كارل ماركس (١٨١٨-٨٣)، فأعلن عن ديانته الجديدة. وأساسها "الحتمية التاريخية" التي تحل محل الإله الخالق. وقد أراد ماركس أن يعزي البروليتاريا عن مصيبتها القائمة بإعلانه أنه من المحتم أن تقوم، في النهاية، "ثورة خير" فتزول الخصومة بين البروليتاريا والطبقة المتوسطة، ويقوم مجتمع "لا طبقات فيه".. ولم يعمّر ماركس بحيث يرى أن الظلم الاجتماعي زال ضرره".
مكمن الخلل في فكر من هذا النوع له أكثر من وجه، والنقد كذلك ينطلق من ذات الموقع.
وبمجرد قراءة الجملة الأولى من الفقرة ستقع في مطب هائل، حيث أن بدايات تشكّل الفكر الاشتراكي والحراكات العمّالية كان سابقاً لماركس بعشرات السنين، ومن أمثلة ذلك الاشتراكيون الطوباويون فورييه وأوين، وغراكوس بابوف قائد أول تمرد شيوعي على الجمهورية الفرنسية حديثة العهد. وفي كتاب (عصر الثورة) يقدّم المؤرخ الماركسي إيريك هوبزباوم تحليلاً تاريخياً معمقاً حول هذه المسألة.
أما من الناحية العملية، فالقول بأن ماركس ابتكر ديانة جديدة هو ضرب من الجنون وتسطيح للفكر، كما لم يكن شعاره "الحتمية التاريخية" (التي تأخذ منحى قدرياً) على الإطلاق. وذلك لأنه كان يرى في الثورة الاشتراكية وتقدم الجنس البشري "ضرورة" تاريخية لتحرير الإنسان من عبودية رأس المال و"الحتمية" الاقتصادية، التي تحل محل الإنسان الخالق لواقعه في ظل استفحال سيطرة المنظومة الرأسمالية على مختلف جوانب الحياة. وفيما يتعلق بمسألة "الخصومة" بين البروليتاريا والطبقة الوسطى، فهو بالتأكيد فهم خاطئ للماركسية ولحركة التاريخ ذاتها.
يشير إيريك هوبزباوم في هذا السياق إلى أن جماهير الفقراء الكادحين في فرنسا، والتي كانت تلقّب بـ"اللامتسرولين" كانت تساند يعاقبة الطبقة الوسطى إبان الثورة الفرنسية، وحتى في خلافهم مع الجيروندين واستمرار "حكم الإرهاب" للجنة السلامة العامة التي كان ماكسمليان روبسبيير وسان جست أبرز أعضائها، استمدّت اللجنة

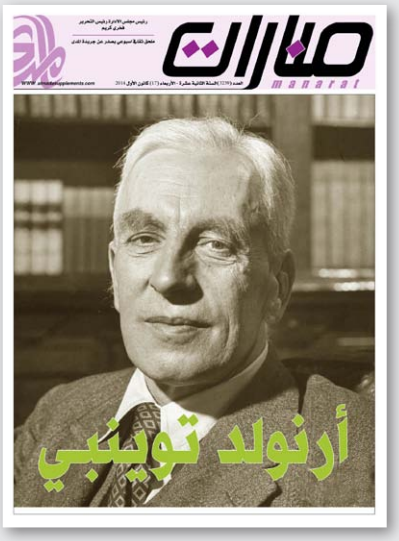

manarat
WWW. almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير
علي حسين

الاخراج الفني
خالد خضير

التدقيق اللغوي
محمد حنون

منارات
طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

شرعيتها من جماهير الفقراء الكادحين، إلى أن أعدم روبسبيير عام ١٧٩٤ على يد معارضيه داخل المؤتمر الوطني في العاشر من شهر ثيرميدور، وفق التقويم الثوري الفرنسي، ليسجّل بذلك آخر فصول ما كان يسمّى بـ"حكم الإرهاب".

أطلق ماركس مسمّى البرجوازية الصغرى على "الطبقة الوسطى"، وكان يعدّها طبقة مترددة اجتماعياً يمكن لها أن تنحاز إلى البروليتاريا وجماهير الفقراء، أو إلى البرجوازية الكبرى المسيطرة، أي أنها تميل إلى المكان الذي تجد فيه تحقيقاً لمصالحها.

ولو أن ماركس بقي حيّاً حتى القرن العشرين، أو حتى يومنا هذا على سبيل الافتراض، لربما احتاج إلى وضع عشرات المجلدات والكتب إلى جانب مجلدات رأس المال الثلاثة، كي يتمكن من تحليل التطورات التي طرأت على المنظومة الرأسمالية، وازدياد وتيرة الحروب والانقسامات والكوارث، وتضخم الهوّة الطبقية بمعدلات غير مسبوقة، وتعمق الظلم الاجتماعي، على العكس تماماً مما تنبأ به توينبي.

وأخيراً، هناك نقطتان في فكر توينبي لا بد من الوقوف عندهما بغية طرح صورة شاملة للمؤرخ.

أولاً: يرى آرنولد توينبي طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب على أنها علاقة بين ذات وآخر، أي علاقة أبدية بين النصف الغربي من الكرة الأرضية ونصفه الشرقي. وبصرف النظر عن تأكيده في أكثر من مكان على انقلاب العلاقة وتغيّر مجالات التوسّع الجغرافي من الغرب إلى الشرق، إلّا أنه يعيد ذلك التبدّل إلى فكرة انهيار "الحضارات" القديمة وظهور "حضارات" جديدة في الغرب تمكنت من السيطرة على العالم بأكمله. بينما نجد أن هوبزباوم يعمل على إحالة هذا التغيير إلى أسباب تاريخية اقتصادية أكثر علمية، كالثورة الصناعية في بريطانيا على سبيل

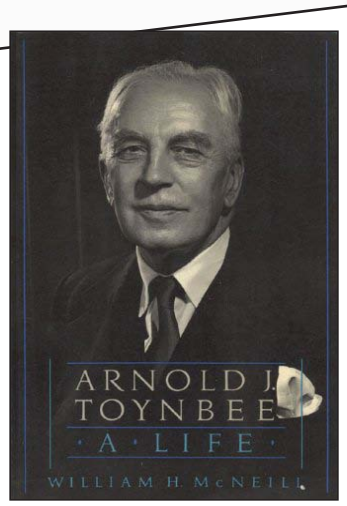

المثال، وعدم قدرة بعض الدول على مجاراة هذه القفزة التي أحدثتها الثورة المزدوجة في العالم، مما أدى إلى عكس الاستقطاب وتحويل الهيمنة الاقتصادية والعسكرية نحو دول الشرق، لكن ذلك لا يعني أبداً أن الشرق والغرب هما وحدات تاريخية ثابتة لا تتغير، كما يفهمها توينبي.

ثانياً: يربط آرنولد توينبي بين الدين وبين التحليل التاريخي للمجتمعات البشرية في مؤلفاته، فهو يرى أن الدين عامل أساسي وضروري لقيام "الحضارات" وازدهارها. ولا يدور النقاش هنا حول الدين في نصوصه، بل عن النزعة الدينية (الغيبية) التي تغلب على منهج توينبي في التحليل، عوضاً عن تغليب العقل المادي العلمي على حساب التفسيرات الدينية (أو شبه الدينية) للتاريخ وحركة المجتمعات. يقول توينبي في كتاب (دراسة للتاريخ) بأن وظيفة المؤرخ "هي في النهاية سعي لرؤية الله وهو يعمل في التاريخ". ومن هنا، فإن توينبي يلغي تأثير الإنسان الفاعل في حركة التاريخ المادية، ويمنح ذلك الدور إلى الدين بما هو عامل خارجي يُفرض على العقل البشري ومنهج التحليل. إذاً، فالأولوية لا بد أن تكون بداية للإنسان، وعلاقات وأنماط الإنتاج، بإعادة الإنسان من اغترابه عن موضوع العمل، وعن العالم الخارجي.

خلاصة نقدية

توفي آرنولد توينبي عام ١٩٧٥ تاركاً خلفه جملة من المؤلفات والدراسات التاريخية، التي لا يمكن سوى أن نعدّها في إطار فلسفة التاريخ ما-قبل العلمية، وإن كان هذا الحكم مجحفاً بعض الشيء. لكن لا مجال للمهادنة هنا، فنحن نخوض اليوم معارك قاسية على جبهات متعددة مع المنظومة الرأسمالية، يندرج التاريخ تحتها كذلك. لم يعد الأمر مقتصراً على الحقل الاقتصادي وحسب، فقد نجحت الرأسمالية بتوسيع مجالاتها في الهيمنة، وعلينا أن ندرك جيداً أين أوقفنا التغلغل الإمبريالي للرأسمالية الذي خلق دولاً تابعة، وأعاد عجلة التاريخ بنا إلى ما قبل العصور الوسطى.

ففي مملكة الضرورة، تسود ديكتاتورية الطبقة، طبقة الأغلبية المسحوقة. هذه هي ضرورة عصر الرأسمالية والفقر والتهميش والحروب والاغتراب وتدمير الإنسان والطبيعة، إنها ضرورة التاريخ اليوم، إما أن نهلك ونحن نقف خلف التاريخ، أو أن نكون في مقدمته. فالثورة الاجتماعية التي تؤطرها نظرية علمية قادرة على صناعة تاريخ الشعوب، قادرة على الدفع بعملية التطور الاجتماعي قدماً، باتت راهنة في هذه الظروف القائمة أكثر من أي وقت مضى.

عن مجلة وجهات نظر ٢٠٠٩